الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة
الجوائز
154

لو وين فو

رواية

الذَوَّاقة

ترجمة وتقديم: يارا المصري

@ketab_n
Follow Me
8.3.2017

الــذوَّاقــة

رواية

لو وين فو

ترجمة وتقديم: **يارا المصري**

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٦

Twitter: @ketab_n

رئيس مجلس الإدارة	د. هيثم الحاج على
رئيس التحرير	د. سهير المصادفة
مدير التحرير	أحمد صلاح الدين إبراهيم
سكرتير التحرير	نبيلة عبد الله
الإشراف الفني	صبرى عبد الواحد
متابعة	غادة ميسرة محمد

لووين، فو.

الذواقة: رواية/ لووين فو؛ ترجمة وتقديم: يارا المصرى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

١٧٢ص؛ ٢٣ سم.

تدمك ٩ ٠٦٣٥ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الصينية.

أ ـ المصرى، يارا. (مترجم ومقدم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٨٢٥/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0635 - 9

ديوى ١٣ . ٨٩٥

Twitter: @ketab_n

- الكتاب: النَوَّاقة.

美食家
陆文夫

- تأليف: لو وين فو.

美食家
陆文夫

- ترجمة وتقديم: يارا المصري.
- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

- جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب في مصر والخارج.
- جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف:

美食家 (1983]
陆文夫

- الطبعة الأولى 2015.
- طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

Twitter: @ketab_n

مقدمة

الطعامُ معبرًا عن الشَرَه والجوع والثورة والرفاهية

الطعام بوصفه بطلاً إنسانيًا:

وقد كنتُ أشعرُ بالاضطراب داخل المطعم كذلك، خاصةً أنني كنتُ أمقتُ رؤيةَ هذا السلوك حيث يتناول الناس طعامهم بنهمٍ وزهو. كان ثلث الطعام على الطاولةِ الواحدة يضيع هباءً، وكانت حاوياتُ الفضلات تمتلئ ببقايا السمكِ واللحم والأرز الأبيض. لقد تحول الأمر من "فَسَدَ اللحم وخَمَّ الخمرُ في القصرِ الوسيع" إلى "فَسَدَ اللحم وخَمَّ الخمرُ في المطعمِ الوسيع"، وإذا أفْلَتُ العنانَ للأمور وكنتُ مُتسيبًا، فأيُّ ثورةٍ قمتُ بها؟).. من رواية الذوَّاقة.

يقول الروائي الصيني "لو وين فو" على لسانِ بطلِ الرواية، الشخصِ الذي عاصر الثورةَ الشيوعية شابًا وكَبُرَ مع تحولاتها وهو يعمل "مديرًا لمطعم".. وفيما كان هذا المدير يدعو إلى التشقف الثوري إن جاز التعبير. حتى في الطعام، كان ثمة شخص آخر شَرِهٌ ويحب الطعام، في توازٍ بين شخصيتين كلاهما على النقيض وبطلهما واحد.. الطعام.

لا تتحدث الرواية إذَن عن "ذوَّاقة" بالمعنى التقني للكلمة، بقدر ما تتحدث عن تحولات المجتمع الصيني المنعكسة هنا في هذا العمل في

Twitter: @ketab_n

"ثقافة الطعام" حين يصبح نادرًا تحدث مجاعة، وحين يصبح وفيرًا، يتفنن الصينيون في موائدهم، وثمة وصفٌ شبه إمبراطوري في الرواية لمائدة كهذه، وإن كانت لعشرة ضيوف فقط.

كما أنَّ البطل الثاني الشَّرِه "تشو تزي تشي".. لا يُبدي نهمًا إزاء الطعام، بوصفه شخصًا أكولاً بقدر ما يعتبر الطعامَ متعةً وفنًّا إلى حد أن يقدم لضيوفه الروبيان المقلي داخل حبات الطماطم الطازجة، إنَّه يحب الطعام ويتذوَّقه، معبِّرًا بذلك عن طيف إنسانيٍّ بامتداد الحضارات البشرية كلها في فنون الطهي والأكل، إنَّه يعبِّر عن نوعٍ من إرادة الحياةِ وحبها بالأكل، حتى في أشد لحظات المجاعة مأساوية.

الذوَّاقة وتحولات الصين الحديثة:

تُعَدُّ رواية "الذوَّاقة" أهم عمل للكاتب الصيني "لو وين فو" وقد نُشرت لأول مرة عام 1983 في العدد الأول من مجلة "الحصاد". وتدور أحداث الرواية في مدينة سوجو جنوب الصين، وهي مدينة مشهورة بجمال الطبيعة وأماكنها الترفيهية، ومعروفة كذلك بمطبخها الشعبي الغني. وتحكي الرواية عن العلاقة بين أحد الأثرياء الذي يحبون الطعام ويعمل ذوَّاقة وهو تشو زي تشي، أحد المشاركين في الثورة الذي يعمل جاهدًا لتنفيذ أهدافها والبعد عن البذخ والإسراف وهو قاو شياو تينغ. وعبر اثني عشر فصلاً، اقتطع الكاتب لو وين فو زمنًا تاريخيًا يمتد حوالي أربعين عامًا، بدايةً من الحرب الأهلية الصينية، مرورًا بالمجاعة الكبرى، ثم اندلاع الثورة الثقافية وما بعدها، حيث عكست الرواية أحوال المجتمع الصيني في ظل تلك الأحداث التاريخية، وناقشتها بشكل عميق من خلال طرح موضوع الطعام وثورة المطاعم ودمجها مع تلك الأحداث، بحيث يمكننا تتبع الأحوال الاجتماعية بل الظروف النفسية كذلك للشعب الصيني، خلال تلك الظروف الصعبة وقدرة هذا الشعب على التعامل

Twitter: @ketab_n

معها، حتى خروجه من عنق الزجاجة بانتهاء الثورة الثقافية وبداية عصر الإصلاح والانفتاح.

ويمكننا اعتبار هذه الرواية روايةً اجتماعية وسيرةً ذاتية للكاتب كذلك. فقد قال "لو وين فو": "قاو شياو تينغ هو أنا". لأنَّ سخطه وكرهه للمجتمع القديم كان السبب الذي دفعه إلى الاشتراك في الثورة والتغيير، ولأنَّه كان معجبًا بالأفكار الثورية المثالية، وقد وقف من قبل لطلب العفو والسماح أثناء الثورة الثقافية كما تحكي الرواية، ولأنه نُفي لمدة تسع سنوات إلى الريف. وتكشف الرواية عبر الشخصيات عن نوع من التأمل الدقيق في الثورة والأفكار الثورية، وعن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، وعن بعض الأفكار والسياسات غير الناضجة وغير المكتملة التي لها علاقة ببناءِ دولةٍ ومصيرِ شعب.

مطبخ سوجو العالمي:

كان الكاتب "لو وين فو" قارئًا نهمًا للكتب والراويات الكلاسيكية، والشعر الصيني القديم، وكتب التاريخ والفلسفة، والكتب المترجمة، كما أنَّ عمله صحفيًا لمدة ثماني سنوات، والظروف التي مر بها، أثر بشكل بالغ في كتاباته وأثرى لغته الأدبية. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ حبه لمدينة سوجو بطبيعتها الخلابة ومطبخها الغني المعروف عالميًا، انعكس تقريبًا في كل أعماله. ولم تكن رواية "الذوَّاقة" استثناءً. وسيجد القارئ أبياتًا من الشعر الصيني القديم لبعض الشعراء المشهورين مثل (باي جو يي) و(تانغ بو خو)، ووصفًا لمدينة سوجو، وتفاصيلَ عن بعض وجباتها، كما أنَّ الرواية لا تخلو من ذكر أحداث تاريخية كالحرب الأهلية والمجاعة الكبرى والثورة الثقافية وغيرها. إلى جانب ذلك، تأتي عباراتٌ من اللهجةِ المحليةِ لمدينةِ سوجو بين حين وآخر في متن الرواية، التي أثرتْ ترجمتها إلى اللغةِ العربيةِ الفصحى وعدم اللجوء إلى العامية المصرية؛ لأنها ليست كثيرة إلى الحد الذي يؤثر في المتن العام لنص الرواية.

Twitter: @ketab_n

وسوف يلاحظ القارئ استخدام الكاتب تقنيات متعددة في كتابته، كاستعادة الأحداث الماضية (الفلاش باك)، والوصف المُسهب أحيانًا لحدث ما، والتنقل بين الأزمنة، وتكرار عبارات وكلمات، والانتقال من ضمير المتكلم أو الراوي إلى ضمير المخاطب.

الكاتب والصحفي وصاحبُ المطعم:

وكاتبُ "الذوَّاقة" الروائي والقاص "لو وين فو" يعدُّ من أبرز أعلام الأدب الصيني المعاصر، ومن الكتاب الذين تركوا بصمةً واضحةً في الأدب الصيني الحديث، لا تزال مؤثرة بعد رحيله عن الحياة. وقد كان الكاتبُ في حياته صحفيًا وصاحبَ مطعم؛ كذلك الأمر الذي وظفَّه في روايته هذه بأشكالٍ مختلفة.

ولد "لو وين فو" يوم الثالث والعشرين من مارس. آذار عام 1927 في محافظة تاي شينغ التابعة لمقاطعة جيانغسو جنوب الصين. وقضى طفولته مع والدته وجَدته. وحين كان عمره ست سنوات التحق بإحدى المدارس التقليدية، وأظهر ولعًا شديدًا بالقراءة والكتب، الأمر الذي دفع بمعلمه إلى الاهتمام به وتشجيعه.

أنهى "لو وين فو" دراسته الابتدائية والإعدادية خلال الحرب اليابانية الصينية الثانية (1937 - 1945) وفي عام 1945 انتقل إلى أقربائه في مدينة سوجو.. التي تدور فيها أحداث الرواية.. للاستجمام واستكمال الدراسة الثانوية، وبعد إنهائها كان يمكنه الالتحاق بالجامعة، حيث قبلته جامعتان في مدينة شانغهاي، لكن أسرته لم تستطع تحمل نفقات الدراسة والمعيشة، ولهذا ذهب إلى المنطقةِ المحررةِ في سوبي حيث درس الماركسية في جامعة هوا تشونغ. وبعد تخرجه فى الجامعة اشترك "لو وين فو" في حرب التحرير، أو ما يُعرف بالحرب الأهلية الصينية في شمال جيانغسو. وفي عام 1949 عاد إلى سوجو وعمل صحفيًا في مؤسسة شينخوا بالمدينة، ومن ثمّ عمل صحفيًا في جريدة سوجو.

Twitter: @ketab_n

بدأ "لو وين فو" عام 1955 مسيرته الأدبية التي استمرت أكثر من خمسين عامًا، وبعد سنتين أصبح عضوًا في جمعية جيانغسو للأدب. وفي عام 1957 أسس مع عدد من الكتاب مجلة أدبية عرفت باسم "المستكشفون"، سرعان ما قضت قبضةُ الحزب الشيوعي عليها، وصُنِّفَ لو وين فو باليميني، وذلك أثناء ما يعرف "بالقفزةِ الكبرى إلى الأمام"، حيث أُجبر على العمل ميكانيكي في سوجو. وبعد ثلاث سنوات من العمل وحسن السير والسلوك، سُمِحَ له بالعودة إلى الكتابة. وبعد اندلاع الثورة الثقافية في عام 1966 نُفِيَ "لو وين فو" إلى الريف لإعادةِ التأهيل من خلال العمل حتى عام 1976 ، وبعد انتهاء الثورة الثقافية بموت الزعيم ماوتسي دونغ، عاد لو وين فو إلى سوجو في نوفمبر عام 1978 وكان عمره خمسين عامًا.

وفي ديسمبر من عام 1978 شغل منصب رئيس تحرير مجلة سوجو، وعاد إلى الكتابة والتأليف مرة أخرى في فترة الإصلاح والانفتاح في عهد دينغ شياو بينغ. وعكست جميع أعماله تأملاً عميقًا وتفكرًا في الذكريات والأحداث الخاصة بالتاريخ المعاصر في الصين كالفقر والتراجع والتخلف والفوضى.

وبعد أن نشر رواية "الذوَّاقة" عام 1983 افتتح "لو وين فو" مطعم "ذاوَّقةُ سوجو القديمة"، ليقدم في مطعمهِ مأكولات سوجو التقليدية، وسيلةً لتحقيقِ فكرته المثاليةِ عن الطعام الجيد، وكان معروفًا في الوسط الأدبي الصيني باشتغاله في أعمال المطاعم.

لقد انتهى به المطافُ إذَن في مدينة سوجو، مدينتَه المفضلةَ في مقاطعة سوجو، وكانت أعماله مرآة لهذه المدينة كما سنرى في رواية "الذوَّاقة" وكان هذا هو السبب في اعتبار أعماله منتمية إلى أدب سوجو. وفي التاسع من يوليو عام 2005 توفى "لو وين فو" عن 78 عامًا متأثرًا بإصابته بداءِ الانسدادِ الرئوي المزمن.

Twitter: @ketab_n

وسام فارس الفرنسي لرواية "الذوّاقة":

برع الكاتب "لو وين فو" في كتابة القصص القصيرة والمقالات والروايات القصيرة والطويلة، ولعل قصصه القصيرة مثل "الشرف" كانت بداية مسيرته بوصفه كاتبًا وانتباه الوسط الأدبي إليه، إلّا أن رواية "الذوّاقة" كانت "ذروةَ أعماله الإبداعية" كما جاء في إحدى المقالات النقدية الصينية حول الراوية. ومن أهم أعماله كذلك الرواية الطويلة "المأوى"، وقصص قصيرة مثل "البئر"، "رجل من عائلة بائع متجول" وقصة "من أعماق الزقاق" التي تُعَدُّ من أهم قصصه القصيرة.

وفي عام 1989 حصل الكاتب "لو وين فو" على وسام فارس في الفنون والآداب، الذي تمنحه فرنسا عن روايته "الذوّاقة" التي نالت شهرةً كبيرة، وتُرجمت إلى العديد من اللغات، كما حازت الرواية كذلك في الصين على جائزة أفضل رواية قصيرة لعام (1983. .1984) كما حُوِّلت روايةُ "الذوّاقة" إلى فيلم من إخراج وبطولة الممثل الراحل (شيوي تشانغ لين) عام 1985.

آمل أن تستمعوا بقراءةِ هذا العمل المترجم من اللغة الصينية إلى اللغة العربية لأول مرة، وبالرغم من أنَّه روايةٌ قصيرة أو نوفيلا، فإن ترجمته استغرقت عدةَ أشهر في تدقيق أحداثه ووجباته وأسماء أكلاته ولغته، وآملُ أن تنمّي هذا الرواية لدينا حاسةَ التذوق لطيبات الأدب والطعام والحياة.

يارا المصري

Twitter: @ketab_n

1 ـ مقدمة مختصرة عن الطعام والشراب

الذوَّاقة، لهذا اللقب وقعٌ طيبٌ على الأذن، وعندما تنطقه تشعر بالفعل أنَّ ثمة لذةً في نطقه! وإذا استخدمت أكثرَ طُرقِ التعبيرِ شيوعًا وبساطةً لشرحِ معناه، وهو ما ليس مشجعًا، فقد أقول: شخصٌ يحب الأكلَ للغاية.

أيمكنُ للشخصِ الذي يحب الأكلَ أن يصيرَ خبيرًا! هذا ما لم أكن أتوقعه بالمرة. فكلُّ الأشياءِ التي أتوقعها لا تحدث، ودائمًا ما تقع الأشياءُ التي لا أتوقعها، وقد كان هناك بالفعل شخصٌ ما صار خبيرًا بسبب حبِّه للأكل، عاش قريبي كالشبح طوال أربعة عشر عامًا. كنتُ أحتقره، أكرهه، وأعارضه، وحينما أصبحتُ أنا في النهاية شخصًا بلا أي مهارة فريدة، صار هو يحمل لقبَ الذوَّاقة بسبب حبِّه للأكل.

وفي البداية لا مناصَ من أن أعبِّر بصراحة، أنني بشكلٍ عام لا أعارضُ الطعامَ والشراب، ولو كنتُ أعارضهما منذ صغري، لكانت حياتي ستنتهي في اليوم ذاته الذي أطلقتُ فيه صرخات مجيئي إلى هذا العالم، ولهذا لا يمكنني معارضةَ فكرةِ الطعام والشراب. ولكن عادات قوميتنا تُعنَى بالجِد والبساطة، واقتصادِ العيش بعدم الإسراف، ولهذا كان الشخصُ النَّهِمُ يلقى الرفضَ دائمًا. وكانت الأمهات يربِّينَ أطفالهن على "استهجان الشراهة"

Twitter: @ketab_n

منذ الصغر، على الرغم من أنَّ هذا النوع من التربية كان يتخذُ من السباب والشتيمة مظهرًا له: " النَّهِمُ، بائسُ الحظ!"، سيصبحُ الشَّرِهُ عفريتًا، وسيكون بائسَ الحظ كذلك. وعندما كان الأطفالُ يريدون إحراجَ غيرهم من أقرانهم، كانوا يحكُّون خدَّ طفلٍ آخر بسخرية: "ألا تخجل، أيها الشَّرِهُ، أيها النَّهِمُ، ألا تخجل". ولهذا كانت الفتياتُ لا يجرؤن على قضمِ الفطائرِ في الشارع خوفًا من التعرضِ للإحراج، والآنساتُ في المسرح كنَّ يغطين أفواههن بأكمامهن عند تناول الطعام والشراب. وقد تربيتُ على "معارضة النَّهم"، ولهذا كنتُ أحتقرُ النهمين من الأشخاص. وبعد أن صادفت تحديدًا ذلك الشخصَ الذي كان شَرِهًا منذ صِغره، والذي أصبح "خبيرًا" ويُدعى تشو زي تشي، رأيتُ أنَّ الأشخاصَ الشرهين كأنهم خَلٌّ يُقَطِّرُ في الأنف.

وتشو زي تشي رأسمالي، وأن تكون رأسماليًا محترفًا، لا ضيرَ في ذلك. يقول بعض الناس إنَّ الرأسماليين أقوى من ملاكِ الأراضي، فهم مثقفون، ماهرون، وعلى دراية بنظام العمل والإدارة. وأنا أوافق على هذا أيضًا. لكن تشو زي تشي كان استثناءً، فهو رأسماليٌّ وصاحبُ عقارات، يملك تقريبًا جميع البيوت في حارتنا هذه. وهو يستغلُ الناسَ الآخرين الذين يفتقدون أيَّ مهارة، ولا ينطق سوى كلمتين فقط: "ادفع الإيجار"، حتى إنَّه لا يحتاج قول هذه الكلمات، لأنَّ مَهمَّةَ جمعِ الإيجار يقوم بها وسيطٌ خاصٌ بالنيابةِ عنه. والرأسماليون مُلاك العقاراتِ بشكلٍ عام يكونون دائمًا على دراية بعالم البناء، وهذا الأمرُ مفيدٌ للمجتمع. لكن تشو زي تشي كان جاهلاً بذلك، حتى إنَّه يملك عقارات عديدة، تقع في مكانٍ ما، ولا يدري عنها شيئًا. كان والده في السابق وكيلًا عقاريًا ماهرًا، افتتح في شانغهاي مكتبًا للعقارات قبل حرب اليابان، وعاشت عائلته هناك، لكنه اشترى في سوجو أملاكًا ضخمة. وفي بدايةِ حربِ اليابان، سقطت قذيفة على سطح بيته، ونجا بأعجوبة شخصٌ واحد، كان هذا الشخص هو تشو زي تشي. الذي جاء إلى مطعم (منزل الجدة) لحضور ولائم الزفاف. وحبُّه للأكل هو ما

Twitter: @ketab_n

أبقاه حيًا، ولهذا فإنَّه لو لم يكن يأكل بنَهَم، لكانَ من الصعبِ عليه أن يعيش.

عندما تعرفتُه، كان على وشك أن يُتم الثلاثينَ من عمره. ولا تظن أنَّ الشرهين جميعًا بُدناء، هذا غيرُ صحيح، ففي ذلك الوقت كان تشو زي تشي هزيلًا كغصنِ صفصاف. ولعلَّه أحسَّ أنَّه هزيلٌ للغاية، لذلك كان يشعرُ أنَّه لم يشبع طوال الوقت، فالأشخاصُ البدناءُ لا يجرؤون على تناولِ المزيدِ من الطعام. وما يُقال حول أنَّ الأشخاص الشَّرهين يهتمون بإطعام أفواههم ولا يهتمون بمظهرهم منطقيٌّ بعض الشيء. وعلى الرغم من أنَّ تشو زي تشي يملك من المال ما يكفي ليأكل ويعتني بمظهره، فإنه لم يكن يُعير اهتمامًا للملبس على الإطلاق. كان يرتدي طوال العام أثوابًا طويلةً غيرَ بالية، يشتريها من محل الملابس التقليدية، وحينما يشتري الجديدة، يرتديها، أما القديمة التي يخلعها "ينساها" في الحمام العمومي. وسمعتُ أنَّه تزوَّجَ من قبل، لكنه لم ينجبْ أطفالًا، ولا توجد في حياته امرأة. في إحدى المرات فقط، رأيته مع امرأةٍ فائقةِ الجمال يركبان معًا عربةَ جَرٍّ ثلاثية ويتنزهان في شارع (هو تشيو)، بعدها علمتُ أنَّ هذه المرأة لم تتمكنْ من دفع أجرةِ العربة، وطلبتْ منه توصيلها في طريقه، لكن تشو زي تشي وبأسلوبٍ يفتقرُ إلى اللياقة طلبَ منها أن تدفع نصفَ الأجرة.

ولا يملك تشو زي تشي منزلًا في شانغهاي، ويعيش بمفرده في منزل بسوجو. وقد شُيِّدَ هذا المنزل في أواخر العشرينيات، على الطرازِ الغربي. بأبوابٍ ونوافذ مَنحلية وسجاجيد، وبمرافق كاملة للصرفِ الصحي. وفي الشرفة صهريجا ماءٍ كبيران، يُجلَبُ إليهما الماءُ من البئرِ بمضخاتٍ كهربائية. كات هذه الفيلا الصغيرة المكونة من طابقين تقعُ خلفَ بئرٍ كبيرة، وفي الأمام توجد ستُ غرفٍ مصطفة من طابقٍ واحد: غرفةُ استقبال، مطبخ، وغرفةٌ للمحركات، ومخزن، كما أنَّ غرفَ الخدمِ كلَّها هناك.

Twitter: @ketab_n

ولأنَّ خالتي وعمةَ تشو زي تشي بناتُ عم، فقد انتقلنا عقبَ حربِ اليابان، وبعدَ وفاةِ والدي، إلى مسكن تشو زي تشي، ومكثنا في الغرفِ المصطفةِ الأمامية. لم نكن ندفع إيجارًا، بل نقوم بمُهمَّتين فقط: الأولى حراسةُ مسكنه، والثانية مساعدةُ أمي في الأعمال المنزلية. كانت هاتان المَهمَّتان مريحتين للغاية، فتشو زي تشي يصحو مبكرًا ويعود متأخرًا، ولا توجد أيُّ أعمالٍ منزلية نقوم بها، ولم يَطلبْ من والدتي أن تساعده في أي أمرٍ من قَبل مطلقًا. لم تتحمل والدتي ذلك، فكانت تغسلُ الأغطيةَ وترتقُها له، وتمسحُ الغبار، وتفتحُ النوافذ. لكنه لم يرحبْ بذلك فحسب، بل كان يشعرُ بالضيق، ويرى أنَّ هذه أعمالٌ غيرُ ضرورية. ذلك أنَّه يرى المنزلَ سريرًا فقط، وعندما يرقدُ في سريره تكون معدته ممتلئة، وحينها يستندُ على الوسادةِ مُطلقًا شخيره.

كان تشو زي تشي يستيقظُ مبكرًا للغاية، ولا ينامُ لوقت متأخر، لأنَّ معدته تبدأُ بالتحركِ ما أن يحين وقتُ استيقاظه، تتحركُ معدتُه في الموعدِ بالضبط كأنها منبه. وما إن يفتح عينيه، حتى تلمع في ذهنه فكرةٌ واحدةٌ فقط، "لنذهبَ إلى تشو هونغ شينغ لتناولِ الشعرية!" هذه الجملةُ تحتاج إلى بعضِ التفسير، وإلَّا فإنَّ أهلَ سوجو فقط، أو كبارَ ومتوسطي السن في سوجو فقط مَن سيفهمها، وسيجدُ البقيةُ صعوبةً في إدراكِ الإغراءِ الذي تثيره.

في ذلك الوقت، كان في سوجو مطعمٌ للشعرية يُسمَّى تشو هونغ شينغ، افتتحَ مؤخرًا فرعًا أمامَ حديقة يي. ويُعدُّ المطعمُ أنواعًا كثيرةً من الشعرية، لا يمكنني أن أصف مذاقَها الشهيَّ اللذيذ، وقائمةُ الطعامِ هناك عامرة. لكن الوجبات عادية، وأود أن أطلعكم على بعضِ أنواعِ الشعرية. أيُّ نوعٍ تود أن تتناوله؟ ستجده. فصحنُ الشعريةِ الواحد، يُقدم بطرقٍ متعددة، والذوَّاقون لديهم خبرة في ذلك. مثلاً، ما إن تدخل المطعمَ وتجلس. "هيه! (حينها لم نكن ننادي الشخصَ بالرفيق)، أريدُ طبقَ شعرية (XX) وبعدَ أن

Twitter: @ketab_n

يتمهل النادلُ لبرهة، يهتفُ قائلاً: "بسرعة، طبق شعرية (XX)، لكن لماذا يجبُ على النادلِ أن يتمهل لبرهة، لأنَّه ينتظرُ أن تُخبره بنوعِ الشعريةِ التي تريدها ـ متماسكة، ناضجة تمامًا، كثيفة المرق، قليلة المرق، شعرية باللحم والخضار، أو الصلصة والتوابل، شعرية تُضاف إليها أوراق الثوم، شعرية بدون إضافة أوراق الثوم، شعرية كثيرة الزيت، شعرية قليلة الزيت، شعرية قليلة الإضافات (شعرية كثيرة، إضافات قليلة)، شعرية كثيرة الإضافات (شعرية قليلة، إضافات كثيرة)، الجسر ـ لا تُوضعُ الإضافاتُ في طبقِ الشعريةِ ذاته، بل تُوضعُ في صحنٍ آخر، وتُستخدم أعوادُ الأكل حين تناولها، كأنك تعبرُ بالطعام جسرًا حجريًا إلى فمك ـ وإذا كان تشو زي تشي في المطعم، ستسمعُ النادلَ يهتفُ بصوتٍ مرتفع: "بسرعة، صحن من الروبيان المقلي، شعرية كثيفة المرق، شعرية بإضافة أوراق الثوم، شعرية الجسر كثيرة الإضافات!"

إنَّ طريقةَ إعدادِ طبقِ شعرية واحد يُدهش المرءَ فعلًا، ولكن تشو زي تشي لا يظن بأنَّ هٰذا كلَّه مُهم، المهم هو أن يتناول "أولَ قِدرِ شعرية". فإذا أعدَّ المطعمُ ألفَ صحنٍ من الشعرية، وقِدرًا من المرق، سيكون المرقُ كثيفَ القوام ذا رائحةٍ خفيفة، ولن تكون الشعريةُ طازجةً، ومحمرة. وإذا تناول تشو زي تشي صحنَ شعرية له رائحةٌ خفيفةٌ من المرق، سيفقد حيويته طوال اليوم، وسيشعر بأنَّ أمرًا ما لا يجري حسبَ ما يشتهيه. ولهذا لا يستطيعَ البقاءَ مثل آبلوموف مُسلتقيًا طوال اليوم، وما إن يحين وقت المغرب حتى يتعينَ عليه النهوض، وغسل وجهه ويديه بسرعة، واللحاق بـ (أولِ قِدرِ شعرية). إنَّ فنَ تناولِ الطعامِ كغيرهِ من الفنون الأخرى، يجبُ أن تحرص إزاءه جيدًا على العلاقةِ بين الزمانِ والمكان.

حينما يخرجُ تشو زي تشي من البوابةِ الكبيرة وهو يدعكُ عينيه، يكون سائقُ عربةِ الركشا قد جرَّها ناحيةَ المدخل. يصعدُ تشو زي تشي العربةَ مزهوًا، رأسه مائلٌ هكذا، يضعُ قدمَه هكذا، وتقرقعُ العربةُ لفترة، متجهةً

Twitter: @ketab_n

إلى تشو هونغ شينغ. وبعد أن يتناول الطعامَ يركب عربةَ آه أر مرةً أخرى، ويتجه إلى مقهى الشاي في شارع (تشانغ مين شي).

ومقاهي الشاي منتشرةٌ في جميعِ أنحاءِ سوجو، لكن لماذا يذهب تشو زي تشي تحديدًا إلى المقهى الموجود في شارع (تشانغ مين شي)؟ ثمة سببٌ ما. في مقهى الشاي ذاك غرفةٌ منفصلةٌ عن غرفِ الزبائن الآخرين، بها طاولة من الخشب الأحمر، وكرسي كبير مصنوع من الخيزران، تشكلُ عالمًا صغيرًا شخصيًا فريدًا. يَجلبُ المقهى الماءَ من الأمطارِ والآبار، ويَجلبُ أوراقَ الشاي مباشرةً من تلالِ دونغ تينغ الشرقية. يُغلَى الماءُ في جَرَّة، وتُشعلُ المواقدُ بأغصانِ الصنوبر، يُنقعُ الشايُ في براد بيشينغ الأرجواني. الأكلُ والشرب، الأكلُ والشرب، الطعامُ والشراب وحدةٌ واحدة لا يمكن فصمها، وكلُّ الذين يُطلَقُ عليهم لقبُ الذوَّاقة، لا يكونون كلهم من أتباع (لو يو) [1] و(دو كانغ)[2] .

وبعد أن يطأ تشو زي تشي مقهى الشاي، يأتي لصدقاؤه بالتتابع. والذوَّاقون فيما عدا التأخرِ عن المواعيد، لا يتحركون فرادى، ولا يجب أن يقلُّوا عن أربعةِ أشخاص، وألَّا يزيدوا عن ثمانيةٍ على الأكثر، لأنَّ أطعمةَ سوجو لها تكوينها المُتكامل. مِثالٌ على ذلك، قبل أي شيء تبدأُ الوجبةُ بالمقبِّلات، بعدها الأطباقُ الساخنة، ثم الحلويات، ومن ثم الطبقُ الرئيس، بعدها المعجنات، ويأتي الحساءُ ختامًا للوجبة. هذه المسرحيةُ الكاملةُ لا يمكن لشخصٍ واحد أن يشاهدها، فإذا شاهدتَ مشهدًا واحدًا بمفردك لن تستمتعَ بمحتواه، ولهذا ينبغي أن يتحرك الذوَّاقون في مجموعات. في البدء يجلسون في مقهى الشاي لمناقشةِ ما تناولوه في اليوم السابق، يتناقشون حول المزايا والنواقص. الدردشة هي المرحلةُ الأولى. وما إن

(1) (لو يو) خبير في فن الشاي. 733ـ 804 م.

(2) (دو كانغ) يُقال إنه مخترع الخمر الأول فى الصين.

Twitter: @ketab_n

يفرغوا منها حتى يتحولوا إلى الموضوع الرئيس، وحتى يكونوا في الجانبِ الآمن، ألا ينبغي عليهم أن يقتطعوا جزءًا من الوقتِ ليقرروا إلى أي مكانٍ سيذهبون اليوم؟ هل إلى مطعم (شين جو فينغ) أم إلى (يي تشانغ فو) أم إلى (سونغ خي لو)، وإذا ملّوا تلك الأماكن، فسوف يذهبون إلى مكانٍ أبعد. ويستأجرُ كلٌّ منهم عربةَ ركشا، أو يركب كلُّ أربعةٍ في عربةِ خيل، يثيرون ضجة، وتصهلُ الأحصنة، ويذهبون إلى مطعم (شي جيا) لتناولِ حساءِ سمكِ البونيت، ثم إلى قرية (فينغ تشياو) لتناولِ الشعرية، أو يذهبون إلى (تشانغ شو) لتناولِ (الدجاج المتسول)...... وللأسف لا يمكنني أن أصف بشكلٍ دقيقٍ مأكولات سوجو وضواحيها، خشيةَ أن يجلب ذلك نقاشاتٍ كثيرةً حول سوجو. والتأثيراتُ الجانبيةُ للروايةِ من الصعبِ دائمًا توقعها.

التنوأقة
Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

2 ـ ما له علاقةٌ بي

إذا كانت علاقتي بتشو زي تشي قد اقتصرت على الطعام والشراب، ما كنتُ سأكرهه لهذه الدرجة. فقد أصبحَ هو ذلك الذوَّاقة، وأصبحتُ أنا الطالبَ الفقير، وظننتُ في البدءِ أنَّ بإمكاننا الانسجامَ معًا. لكنني في الفصل الأول ذكرتُ وجبةَ الإفطارِ التي يتناولها، ووجبةَ الغداء، وتبقى له وجبةُ العشاءِ التي لم يتناولها بعد!

ما إن ينتهي تشو زي تشي من تناولِ وجبةِ الغداء، حتى يذهب إلى الحمَّام العمومي ليستَحم. وذهابه إلى هناك ليس من أجل الاستحمام على وجه التحديد، بل السبب الرئيس هو أن يجد مكانًا مريحًا للتخلص من تلك الوليمةِ الدسمة. يقولُ المَثل إذا كنتَ جائعًا نمْ، و إمشِ إذا أكلتَ حتى التخمة. بعد أن يتناول تشو زي شي الطعامَ تصبحُ قدماه ثقيلتين، ورأسُه مضطربًا، ويغرقُ في حالةٍ أبدية من الرضا والكسلِ وانشراحِ الصدر. صعدَ مترنحًا إلى عربة آهِ آر، وتوجه كهبَّةِ ريحٍ إلى الحمَّامِ العمومي، كأنه ذاهبٌ إلى موعدٍ مع الطبيب.

لا يقوم تشو زي تشي إلاّ بجهدٍ ضئيلٍ للغاية حين يدخل الحمَّام، يمدُّ يَدَه ويرفعُ الستار. وما إن يرفع الستار، حتى يهتفَ الرجلُ الجالسُ على

Twitter: @ketab_n

طاولة دفع الحساب بصوت مرتفع: "لقد جاءَ المدير تشو!" الله وحده يعلم، في أي يومٍ كان تشو زي تشي مديرًا، يجب أن يُدعَى الرأسماليُّ بـ الرئيس حتى يكون الأمرُ معقولاً. ولكن، كلمة الرئيس التي تُطلق للاحترام فقدت عصريتها. السببُ الأول أنَّها تفتقرُ إلى شيءٍ من النكهة الحديثة، والسببُ الثاني أنَّ الرئيس ربما كان كبيرًا أو صغيرًا، حيث يمكنُ لزوجين يفتتحان متجرًا أن نطلق عليهما ذلك. ولكن كلمة مدير ليست صحيحة، فمديرو الشركاتِ الأجنبية، أو الشركاتِ الأخرى، تكون تجارتُهم كبيرة، ويدهم سخية، وبقشيشهم لا يكون يوانين أو ثلاثة، فورقةٌ من فئة خمسين يوانًا لا تحتاج أن تفكَّها! ولهذا فما إن سمع العاملُ جملةَ لقد جاء المدير تشو، حتى خرج شخصان في الحال، منهما شخصٌ يوشكُ أن يحمل تشو زي تشي إلى غرفة من الدرجة الأولى. هذه الغرفةُ تشبه قليلاً غرفَ الدرجةِ الأولى في الفنادقِ في وقتنا الحالي، بها سريران، وبانيو مطلي بالمينا، وحوضٌ لغسل الوجه، ودش. الأمرُ الوحيدُ المختلف هو أنَّ المكانَ صغيرُ المساحة، وغيرُ مزودٍ بمكيفٍ للهواء. ولكن هذا ليس عائقًا، فالبخارُ موجودٌ في الشتاء، وفي الصيف مروحةٌ معلقةٌ (ماركة واتسون) قديمةُ الطراز، أربعةُ ألواحٍ خشبيةٍ لا تتوقفُ عن الدورانِ أعلى السقف.

وما إن يجلس تشو زي تشي داخل الغرفة، حتى يبدو كأنه مريضٌ مصابٌ بمرضٍ خطيرٍ في غرفةِ مستشفى، فهو لا يحتاجُ لبذلِ جهدٍ في أي شيء. فالنادل يصبُّ الشاي، والمسئولُ عن فركِ الظهر يأتي ليملأ البانيو بالماء، حتى أنه لا يحتاجُ إلى خلعِ حذائه. وتشو زي تشي لا يرغبُ في بذلِ مجهود كذلك، إنَّه يُركِّزُ طاقتَه كلَّها ببلادة في مواجهةِ تلك المعدة، ويعتقد أنَّ الأكلَ نوعٌ مَن أنواعِ المتعة، ولكن هضمه أيضًا نوعٌ من الجمال الذي لا يمكن وصفه، لهذا يجب أن ينصرف إليه باهتمامٍ وتركيز، ولا يسمح بتشتيت انتباهه بفعلِ أي مؤثرات خارجية. وأنجعُ طريقةٍ للتركيز هي الاستلقاءُ في الماءِ الدافئ، في تلك اللحظة يغمره الفراغ، ويسود الصمتُ والهدوء، ولا يشعر إلا بمعدته تتحركُ في بطء، ويغمرُ جسمه إحساسٌ

Twitter: @ketab_n

بالراحةِ والحلاوةِ التي لا يمكن وصفهما. ولا يختلفُ هذا عن تذوقِ الأطعمةِ الشهية، الفرقُ فقط أنَّ الأمرَ الثاني لا يمكن استبداله بالأول. وهكذا يتمدد بلا حراك، ويبقى حوالي نصف ساعة بعينين نصف مغمضتين في البانيو. وبعد أن يغلبه النعاس ويدير رأسه، يأتي الشخصُ المسئولُ عن فرك الظهر حاملاً لوحًا خشبيًا كبيرًا. ويسحب تشو زي تشي من البانيو، ويغطي البانيو باللوح الخشبي، ويطلب منه أن يستلقي على "طاولةِ العمليات"، ليبدأ مهمته في فركِ الظهر. سيداتي وسادتي القراء لا تفهموا كلمةَ فركِ الظهر بالمعنى الضيق، فتبدو الكلمةُ كأنَّ شخصًا هناك ينوبُ عن شخصٍ ما في إزالةِ الأوساخِ عن جسمه. هذا غير صحيح، فتشو زي تشي يأخذ حمامًا كلَّ يوم، ما الأوساخُ التي على جسمهِ لينظفها؟ في الحقيقة فركُ الظهرِ بالنسبة له نوعٌ من فنون التدليك القديمة، وهو رياضةٌ سلبية. ومن المتعارف عليه أنَّ مائةَ خطوة بعد تناول الطعام هي الطريقُ لطولِ العمر، ولكن يجب لمَن يتبعَ هذه العادة أن يحرك قدميه بنفسه. ولكن فركَ الظهرِ ليس كذلك، يجب أن تسترخي تمامًا على "طاولةِ العمليات"، وتترك مهمةَ التدليكِ لشخصٍ آخر، يُمَسِّدُ يديك ويثني قدميك، ويقلِّبُكَ يمينًا ويسارًا، ويرفعك وينزلك، ويحقق هذا تأثيرًا كتأثير القيام بالتمارين الرياضية، إلاَّ أنكَ لا تحتاج إلى بذلِ مجهود. والذوَّاقة الحقيقي يجب أن يكون على درايةٍ بفن التخلص من الطعام، فإذا لم يفعل ذلك، فإنه لن يستمرَ في عمله، ويكون ذلك أمرًا خطرًا للغايةِ أيضًا!

ولا يستغرق تشو زي تشي وقتًا طويلاً في هذه التمارين، وبشكلٍ عام لا يتعدى الوقتُ نصفَ ساعة. بعدها يستلقي على السريرِ للبدءِ في سلسلةٍ من الشكلياتِ التي لا داعي لها، منها تدليكُ القدمين، وتنشيطُ مفاصلِ القدمين واليدين، والتربيتُ على الكتفين، والدَّقُّ على القدمين. وهي آخرُ مرحلة، وعلى الأرجح أنَّ لها علاقةً بفنِ التنويم، فعبرَ التربيت الخفيف، وذاك الصوتِ الصافي ذي الإيقاع وبقلبٍ منشرحٍ منبسط، يدخلُ في النومِ شيئًا فشيئًا. وتستمرُ هذه الإغفاءة ثلاثَ ساعات، تهضمُ خلالها معدته الطعامَ تمامًا، وتفسحُ مكانًا للوجبةِ القادمة.

Twitter: @ketab_n

وحينما يكون تشو زي تشي على وشكِ الاستيقاظِ من النوم، أكون قد انتهيتُ من الدوامِ المدرسي عائدًا إلى المنزل. وما إن أضع الحقيبةَ المدرسية، حتى تقول لي والدتي:

"إنه في يوان دا تشانغ اليوم أيضًا، اذهبْ بسرعة!"

لا يوجد سواى يفهمُ ما قالته أمي، فلا تزال هناك وجبةُ عَشاءٍ لم يتناولها تشو زي تشي هذا!

ووجبةُ العَشاءِ التي يتناولها لها طابُعها المميزُ كذلك، فهي تشبه كتابةَ الرواية، الفصلُ التالي لا يمكن أن يشبه الفصلَ السابق. ولهذا فهو لا يذهب إلى مطعمٍ الشعرية، ولا يذهب إلى مقهى الشاي، بل يذهب إلى الحانة. وقد أولى وأصدقاؤه اهتمامًا بالغًا للمذاق أثناءَ تناولِهم وجبةَ الغداء، واستخدموا مصطلحهم الفني "تناولُ شيءٍ من المَذاق". ولذلك أثناءَ تناولِهم للطعام لا يشربون على الأكثر سوى بضع كؤوس من خمر شاو شنغ الممتاز، ولا يقربون النبيذَ الأبيض، فهم يعتقدون أنَّ النبيذَ الأبيضَ يكون لاذعًا بعد احتسائه، ويُضعف من حاسةِ تذوقهم، ولن يتمكنوا من تمييزِ مذاقِ الأطعمةِ بعضِها عن بعض! وفي المساء يجب عليه أن يشرب حتى الثمالة، وحين يسكر يمكنه أن يغطّ في نومٍ عميق، ويتجنب تجربةَ الأرقِ المؤلمة، ولهذا لا بد له من الذهابِ إلى الحانة.

وحاناتُ سوجو تقدم الخمرَ ولا تقدم المأكولات، تقدمُ عدةَ أطباقٍ من التوفو المجففِ على الأكثر، والفول، والملفوف الحار وغيرها. وإذا توفرت لدى كونغ يي جي(*) هذه الأطباق لكان الأمرُ جيدًا، في الخمر لا في الطعام يظهرُ معدنُ الرجلِ النبيل. أما الذوَّاقون فليسوا كذلك، ولأنهم

(*) كونغ يي جي: عنوان قصة للكاتب الصيني الراحل لو شون، وهو أحد شخصيات القصة الرئيسة، وتحكي القصة عن طالب عمل في نسخ المخطوطات للأغنياء بعد فشله في نظام الفحص الإمبراطوري ليصبح موظفًا، وأصبح أضحوكة للناس.

Twitter: @ketab_n

يملكون أموالاً أكثرَ من النبلاء، فيجب عليهم الاهتمامُ بالخمر، ولا يمكنهم تجاهلَ الطعام، وما داموا لا يستطيعون تجاهلَ الطعام، فلا يمكنهم أيضًا أن يأكلوا الوجبات ذاتها، ولهذا يتجهون إلى نظامٍ آخرَ في أطعمةِ سوجو - الوجبات الخفيفة. ولا يمكنني الاسترسال في الحديث حول وجباتِ سوجو الخفيفة حينما أذكرها، وبغض النظر عن الأسبابِ التي ذكرتُها من قبل، فهي تثيرُ في نفسي فترةً مفعمةً بالذكرياتِ المؤلمة. فقد كان أحدُ الأشخاص الذين أكرههم يرسلني لشرائها وقتما يشاء!

ووجباتُ سوجو الخفيفة لا تُباع في دكانٍ واحد، بل هي منتشرةٌ في الشوارع والأزقة، على أطرافِ الجسور ومداخل الشوارع. منها ما يُباع في دكاكين، بعضها على عربات، بعضها يبيعه الباعةُ المتجولون. وإذا أحضرنا كلَّ صنفٍ منها ليؤكلَ مع النبيذ، فلن يستطيعَ أيُّ نادلٍ القيامَ بذلك العمل، ويجب أن يكون هناك شخصٌ ما يجوب الشوارع ليحضرها. ولعلَّ ساقيَّ قد أصبحتا طويلتين، فقد تناقش تشو زي تشي مع أمي قائلاً:

"ابنك قاو شياو تينغ ذكيٌّ فَطِن، كنتُ أود أن يساعدني في أمرٍ ما، وسأعامله معاملة طيبة".

بالطبع وافقت أمي، فهي تعيش في منزله ولا تدفع أجرًا، ولا يوجد أعمالٌ منزلية يمكنها القيامُ بها، وهي في الحقيقة تشعر بالأسف، وبرغبةٍ شديدةٍ في مساعدته بأي شيء حتى تتجنب اللوم. أمي المسكينة لا تعرف ما معنى الاستغلال، ولا تعترف إلا بقوانين المجتمع الحالية. فقد علَّمت ابنها ألَّا يأكلَ كثيرًا، لكنها لا تعارضُ شراهةَ تشو زي تشي، وتعتقد أنَّ هذا نوعٌ من "الشهيةِ الجيدة"، والشراهةُ والشهيةُ الجيدة أمران مختلفان. لكن بالنسبةِ لي كان الأمرُ جادًا، لم أكن موافقًا البتة على أخذِ مكانه في شراءِ الوجباتِ الخفيفة. فكيف لطالبٍ ممتازٍ في المرحلةِ الثانوية أن يذهب ليعملَ خادمًا لدى شخص شرِه!

Twitter: @ketab_n

بكت والدتي مرةً أخرى، فبعد وفاةِ والدي أصبحت ظروفنا المعيشيةُ قاسية، واعتمدنا فقط على أخي الكبير وسفرهِ وعملهِ بحارًا للحصول على المال: "اذهبْ يا شياو تينغ، نحن نعيشُ تحت سقفِ منزلهِ دون أن ندفع إيجارًا، ونطأُ أرضه، ولا ندفعُ فواتيرَ المياهِ والكهرباء، التي تعادلُ ثمنَ الطعامِ لعائلة بأكملها، فإذا لم يقترح المديرُ شيئًا، لم تكن لتُكملَ دراستَك، ولكانت عائلتُنا تعيشُ في الشارع. إنني ألومُ أبيك على تركهِ لنا مبكرًا، أرجوك....."

كنتُ مضطرًا لتحملِ الإهانةِ في سبيلِ تلبيةِ الأمرِ، وكنتُ أحملُ كلَّ يومٍ سلةَ البامبو وأقفُ أمامَ بابِ الفندق. وحينما تلمعُ الأضواءُ الأولى للفندق، وتنيرُ مصابيحُ النيون الشوارعَ، يصل تشو تزي تشي وأصدقاؤه بالعربات. يصلُ سيلٌ من العرباتِ البرَّاقة، تتعالى منها أصواتُ الأجراسِ النحاسية، وأصواتُ الأبواق، كتنانين محلقة تخترقُ الجمع، وتتوقفُ ببطءٍ أمامَ بابِ الفندق. يكون كلُّ شخصٍ منهم مُغتسلًا ومُهندمًا، وتفوحُ من جسمهِ رائحةُ صابونٍ عَطِرَة، والحمرةُ تكسو وجهه، ومفعمًا ببشاشةٍ وإشراقٍ ورضا. وتكون عربةُ تشو تزي تشي دائمًا في الأمام، ويبدو سائقُ العربة آه أر أيضًا قويًا ومنتعشًا للغاية. يرفعُ آه أر عن تشو زي تشي السجادةَ الحمراءَ الصغيرةَ التي تغطي ركبته، فيثبُ نازلًا باسترخاءٍ وقوة. ولم يكن مديرُ الفندق في استقباله، ولا الندلاء كذلك، بل صفَّان من أشخاصٍ في ثيابٍ رثةٍ بالية، تغطي القذارةُ وجوههَم، متسولون يُشكِّلون حرسَ شرف. يمدون أذرعهَم إلى الأمام متجهين ناحيته، وألسنتُهم تهتفُ أيها السيد، وأياديهم الذابلةُ ترتعشُ كأغصانِ شجرٍ عن يمينه وعن شماله. وبدا أنَّ تشي زي تشي قد استعد باكرًا لهذا الأمر، فما إن رفع يده، حتى رمى بعملةٍ ورقيةٍ ضيئلةِ القيمة باتجاههم قائلاً: "اذهبوا اذهبوا".

حينما تشتت الجمع، كنت أنا الذي أحملُ سلةَ البامبو، أقفُ مستندًا إلى الباب، جاء متسولٌ فريد تقرقعُ معدته ليقفَ أمام تشو زي تشي. كان

Twitter: @ketab_n

هذا الشخص فريدًا، لأنَّه يعرفُ القليلَ عن تاريخِ الجغرافيا، والحريةِ والمساواة، وقرأ من قبل حول مبادئ الشعب الثلاثة (الوطنية والديمقراطية والحياة الشعبية)، وكان معارضًا للشَرّه، كما أنه كان يفهم ماذا تعنى كرامةَ الإنسان. حينما هتف المتسولُ مُشتتًا الجمعَ وأظهرني، اشتعلَ الغضبُ في صدري، وتصببَ العرقُ من وجهي، ووددتُ أن أقذف سلةَ البامبو على تشو زي تشي. لكنني تحملتُ الإهانةَ على مضضٍ وأخذتُ النقود، وكما أوصاني ذهبتُ إلى (لو قاو جيان) لشراءِ اللحم المحمَّر بالصويا، ثم إلى (ما يونغ تشاي) لشراءِ اللحوم، ثم إلى (تساي تشي تشاي) لشراءِ الروبيان والسمك المجفف، ومن ثم ذهبتُ إلى بيتِ إحدى العجائز لشراءِ الإوز بالنبيذ، ثم إلى معبد (شيوان مياو) لأشتري شرائح التوفو المقلية، ثم أمضي إلى الأماكن اللعينة تلك؛ لأسألَ عن هذه الوجباتِ الخفيفةِ التي لا يعلمُ عنها أحدٌ شيئًا إلاَّ الله.....

حملتُ سلةَ البامبو وسرتُ عبر الشوارع والحارات، وكانت مشاهد سوجو الليلية تومضُ أمامي تارةً وتخفتُ تارةً أخرى. كان في هذا الجانب فندقٌ مهيبٌ وجميل، تتهادى منه أصواتُ ألحان أوبرا، وكانت أضواءُ مصابيح النيون تنعكسُ على حجارة الرصيف مُطلقةً مختلفَ الألوانِ البرَّاقة، وفي ذاك الجانب كانت أضواءُ الشارعِ خافتةً شاحبة، والحاراتُ ساكنةً كالموت، وامرأةٌ عجوز تبحثُ في صندوقِ القمامةِ عن فضلات الطعام. بينما هنا تتقارعُ الكؤوسُ وتتقاطعُ الصحون، وتتابعُ الأطعمةُ اللذيذة، ويلعبُ الناسُ لعبةَ الأصابع، هناك يوجد الكثيرُ من الناس كالظلال يقفون أمامَ دكانِ الأرز، وعلى ظهورهم خُطَّ رقمٌ بالطباشير، ينتظرون التزودَ بحصصهم من الأرز. هنا توجد مناسبةٌ سعيدةٌ ما، شملت مطعمَ (سونغ خي لو) بالكامل، كانت عرباتُ الأحصنة، والدراجاتُ الثلاثية، وعرباتُ الركشا مُصطفَّةً في شارع قوان تشيان، كانت طرحةُ العروسِ الناعمة مُنسابةً على كتفيها، وفستانُها الطويلُ يجرجرُ على الأرض، وجميعُ

Twitter: @ketab_n

المدعوين يرتدونَ البذلاتِ والأحذيةَ الجلدية، والفساتينَ والحُليَّ البرَّاقة، ولكن بمحاذاةِ شرفاتِ معبدِ شيان مياو كانت هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من الناس مُنكمشةً داخلَ قطعٍ من الخيش. ولعلَّ بينهم مَن لن يستطيع رؤيةَ الغد..... "فسَدَ اللحمُ وخَمَّ الخمرُ في القصر الوسيع، وعلى الدربِ يموتُ الناس من بردٍ وجوع". كان بيتُ الشعرِ المعروفِ ذلك يتردد دائمًا في ذهني.

لكن تشو زي تشي كان يُحسن معاملتي، ويدس دائمًا باقي النقودِ في جيبي قائلاً: "خذها!" وكانت ملامحه الحيويةُ المنتعشةُ تشبه ملامحه حينما يعطي المتسولين المال.

فتحتُ عينيَّ، ووقفتُ ساكنًا. وشعرتُ بإهانةٍ عظيمة.

"خذها، خذها واشترِ لجدتك اللحم".

ومن هنا أزالَ الحزنُ والألمُ هذه الإهانة. لديَّ جدة، كانت معي منذ أن كنت صغيرًا إلى أن كبرت، كان عمرها في ذلك الوقت سبعةً وستين عامًا، تساقطت أسنانُها، وتعاني من الشلل النصفي، كما أنَّها كانت مضطربة. إلا أنَّ شهيتها كانت جيدةً للغاية، وكانت تثيرُ ضجةً كلَّ يومٍ لأنَّها تريد أكلَ اللحم، خاصةً شرائح اللحم بجبن الصويا من (لو قاو جيان)، هذا اللحمُ يذوبُ في الفم، وطعمه حلوٌ لا تشبع منه. وهي لا تعلم شيئًا عن سعره أو عن الأحوالِ الاقتصادية، فكلُّ شيءٍ في ذهنها يُحسب برؤية العملات المعدنية والورقية. كانت تعلم فقط أنَّ أخي الكبيرَ يرسلُ كلَّ شهرٍ ألفَ يوان (يساوي 100 جين من الأرز)، فلماذا لا نقتطع منه ستةً وعشرين يوانًا ونشتري لها اللحم؟ إنَّ ثلاثمائة عملة نحاسية تساوي يوانًا واحدًا! ثم ألقت اللومَ كلَّه على أمي، وشتمتها قائلة إنَّها غيرُ بارةٍ وعاقة، وتبخلُ على امرأةٍ عجوز. ثم شرعت تتحدث عن العلاقةِ الطويلةِ بينها وبين زوجةِ ابنها، وهي تسب تارةً وتبكي تارةً أخرى. ومهما شَرَحَتْ لها أمي لم يكن ثمة فائدة، وتضطرُ في النهايةِ لتنقيةِ الأرز من الحصى، وسَكْبُ دموعها في السلة. ووسطَ نهري الدموعِ هذين انفطرَ قلبي!

Twitter: @ketab_n

حينما اشتريتُ بضعَ شرائح من اللحم من باقي النقود التي أعطاني إيَّاها تشو زي تشي، ووضعتها أعلى سرير جدتي، مضت تأكلُ، وتبكي، وتداعبُ رأسي بيدها المرتعشة: "إنكَ حفيدٌ طيب، وأنتَ البارُ المطيع، لم تذهب تربيةُ جدتك لكَ هباء....."

حينما سمعتُ هذا الكلام انسابت دموعي، أردتُ أن أنفجر باكيًا، وأصرخَ، وأتضرعَ إلى الله! لكنني حاولت جاهدًا كتمَ دموعي، وظللتُ منكبًا على سرير جدتي، ودفنتُ وجهي في الوسادة. طالما أنني أخذت هذه النقود وأنا أشعرُ بالإهانة، فلماذا لا أستطيع منحَ جدتي شيئًا من المواساة!

"في السماء توجد الجنة، وعلى الأرض توجد سوجو وهانغتشو"!، هذه المقولةُ القديمة لا أدري بالضبط مَن اخترعها، وقد وضعت سوجو بتباه في المقدمة عن هانغتشو. ويُقال إنَّ لهذا الترتيب سببًا ما أيضًا، لأنَّه منذ أن رضت أسرةُ سونغ الجنوبية بسيادةٍ جزئية أصبَحَتْ "أسكَرَتْ رياحُ الربيعِ السيَّاح، وظنُّوا أنَّ هانغتشو هي سوجو."[1] أما سوجو فكانت في عهدِ أسرةِ تانغ "دفَعتْ آلافُ العائلاتِ الضرائب، وحمى آلافُ الإخوةِ الحدود."[2] إلى أن وصَلَتْ "مدينةٌ خضراءُ يغطيها الذهب[3]" في عهدِ أسرةِ مينغ. وبعد نهوض مدينةِ شانغهاى منذ نحو مائةِ عام، كان الناس المثقفون الذين يتصارعون مع بعضهم البعض في مدينةِ الأجانب يملكون بيوتًا كبيرةً في مدينة سوجو، ويشترون العقارات والأملاك، مُتخذين وضعًا دفاعيًا يتمثلُ في الهجومِ والتراجع. وسوجو ليست مركزًا سياسيًا، ولا يوجد الكثيرُ من النزاعاتِ الداخليةِ بين الدوائر الرسمية، كما أنَّ خطرَ المجازفةِ بإدارتها، لم يجعلها نقطةً استراتيجية، وخلال الألفي والثلاثمائةِ عامٍ بعد زوالِ حكمِ أسرةِ وو يوي، لم تشتعلْ حربٌ في سوجو، بل كان الجو

(1) أسكرت رياح الربيع السائحين، وظنوا أن هانغتشو في سوجو بيت للشاعر لين شينغ.

(2) "دفعت آلاف العائلات الضرائب، وحمي آلاف الإخوة الحدود" بيت للشاعر باي جو بي.

(3) "مدينة خضراء يغطيها الذهب" بيت للشاعر تانغ يو خو.

Twitter: @ketab_n

منعشًا لطيفًا، والموارد وفيرة، والمناظرُ الطبيعية ساحرة. والأجيالُ اللاحقةُ من الملاكِ البيروقراطيين، ورجال الأعمال من الحكومة، ومَن ألقى السكينَ فورًا وتحول إلى بوذا، والمثقفون الذين لم تُكتَشف مواهبهم بعد، وجيل كامل من المومسات المشهورات اللواتي فقدن بريقهن، يحبون جميعًا أن يأتوا إلى سوجو لقضاءِ آخر أيام حياتهم في هناءةٍ وهدوء. لَكَم يوجد الكثيرُ من الأغنياءِ والمثقفين الذين يعيشون بطمأنينة ويعملون بارتياح، ولا ينقصهم الطعامُ أو المتعة، وهذا هو ما يجعل جنةَ سوجو أروعَ ما ظللته السماء، وثقافةُ الطعام أيضًا في غايةِ الإبداع!، فالمناظرُ الطبيعية لا يمكن أكلها، ولا متعةَ فيها حين تراها يوميًا، ولكن تناول وجبات الطعام الثلاث كلَّ يومٍ أمر ضروري. ولعلَّ كون سوجو هي الجنةَ الأولى على الأرض، يرجعُ إلى أنَّ أطعمتها كانت أشهى مذاقًا من هانغتشو. ولعلَّ ذلك هو سببُ تفاخر أهالي سوجو، إلَّا أنني في ذلك الحين كنتُ أشعرُ أنَّ ذلك نوعٌ من الجريمة، وأعمقُ تجسيدٍ للظلمِ وعدمِ المساواة حققها الإنسان!، ولم أكن أدري ما إذا كانت هناك "جنة" في الجحيم، إلاَّ أنني أعلمُ أنَّ "الجنة" بها جحيمٌ بكلِّ تأكيد، وهناك الكثيرُ من الأشخاص يجيئون ذهابًا وإيابًا بمحاذاةِ أطرافِ الجحيم ذاك. ولأكنْ صادقًا، فإنني عندما بدأتُ الاعتقادَ بالنظريةِ الشيوعية، لم أقرأ من قبل كتابَ (رأس المال)، ولم أقرأ كتابَ (مبادئ الحزب الشيوعي) أيضًا، وكان ذلك بفضل تشو زي تشي وأصدقائه، فقد جعلوني أشعر بأنَّ كلَّ ما يقولونه من مبادئ زخرفٌ تافه، وأنَّه لا يوجد سوى الشيوعية التي يمكنها حَلُّ المشكلات!، لنرَ إذا استولت الشيوعية على منزله، فهل سيكون حيويًا بهذا الشكل أم لا!

غنيتُ سرًا مقطعًا من أغنيةٍ من بي بينغ(*):

الجبلُ مكانٌ جميل

(*) الاسم القديم لمدينة بكين.

Twitter: @ketab_n

يتساوى فيه الفقيرُ بالغني

إذا كنتَ تريد أن تأكل يجب أن تعمل

ولا أحد يكون لك تابعًا

.....

كان إيقاعُ الأغنيةِ بسيطًا، ولا يحتاج لأن ألوِّن صوتي أو أبذلَ مجهودًا، إلَّا أنَّها جعلتني أجد مخرجًا من حالة "فسَدَ اللحمُ وخَمَّ الخمرَ في القصرِ الوسيع، وعلى الدربِ يموتُ الناسُ من بردٍ وجوع" كان المَخرَجَ هو الجبل.

قررتُ الذهابَ إلى منطقةِ التحرير، وكان ذلك في شتاءِ عام 1948، لم تكن لدي خلفية حول الأوضاع في المنطقة هناك، وكنتُ أعتقدُ دائمًا أنَّ حزبَ الكومنتيانغ لا يزال يتمتع بقوةٍ وسلطة، ويوجد العديد من القنابل النووية الأمريكية وغيرها. وكانت طبقةُ البروليتاريا تريد أن تحرز انتصاراتٍ في أرجاءِ البلاد، ويبدو أننا يجب أن نخوض سنوات، أو عشرات السنوات من الصراع الدامي!، لقد قرأتُ روايتي (السيل الحديدي)، و(الانهزام) من قبل، وأعلم الصعوباتِ والمشاقَّ التي تواجه الثورة، وأعلمُ أنَّها تجربةٌ قاسية يمتزجُ فيها الدم والنار. ولهذا فقد كان قلبي حينها مثقلاً بالحزن، وأنا أتهيأ للذهابِ إلى ميدانِ المعركة. "زئيرُ الرياح [1] والنهرُ البارد، ولا عودةَ للمحاربِ الشجاعِ بعد رحيله" كانت حالتي المعنوية حينها تشبه كثيرًا حالةَ (جين كي)[2] عندما ودَّع صديقه (قاو جيان لي)[3].

كان (قاو جيان لي) بالنسبةِ لي هو سوجو، هذه المدينةُ الساحرةُ التي تعرضت للمشاق، دعتني للذهاب إلى القتال! وقبل أن أودعها ذهبتُ إلى

(1) "زئير الرياح والنهر البارد"، ولا عودة للمحارب الشجاع بعد رحيله: كاتب مجهول، من كتاب (حوليات التاريخ. سير القتلة المأجورين).

(2) جين كي: قاتل مأجور، مشهور بقصة فشله في اغتيال تشين شي هوانغ، امبراطور أسرة تشين.

(3) قاو جيان لي: صديق جي كي المقرب.

Twitter: @ketab_n

جبل (خو تشيو)، ووقفت في شرفة (خو فو) أتطلع لمرةٍ أخيرة إلى هذه المدينةِ الخلابة: وداعًا، سيغسلُ أبنكِ ما عليكِ من دنسٍ بدمه! وفي المغرب، ذهبت كعادتي لشراءِ المأكولاتِ الخفيفةِ لتشو زي تشي، وذهبتُ لشراءِ شرائح اللحم بجبن الصويا ووضعها أمام جدتي في سريرها: كُلي، يا جدتي، لقد اشترى لكِ حفيدُك اللحمَ بالنقودِ التي أخذها وهو يشعرُ بالإهانة، وأخشى أنَّ هذه هي المرةُ الأخيرة! وكان تخميني في محله، فما أن شعرت الجدة بأنَّ أكثرَ أحفادِها برًّا بها سيغادرها، حتى شرعت تبكي لمدةِ ثلاثةِ أيامٍ لتفارقَ الحياةَ بعدها.

ما أعمقَ ذكرياتُ الشباب! أمّا ما عانيته أثناءَ الثورةِ الثقافية من تجريس، والتجوالِ في الشوارع، والإحساس بالمهانةِ والإذلالِ حينها فقد تلاشى الآن، وكأنه لعبةٌ لا تستحقُ الاهتمام. لكن ابتعادي عن المنزل قبل ثلاثين عامًا، ووداعي أهلي وسط الظلام الحالك، واتجاهي إلى مكانٍ يلفه السوادُ والمشاهدُ العنيفةُ لا يزال محفوظًا في ذاكرتي بكامله. ولعلّي أحب تذكّرَ المجد ونسيانَ المهانة والمذلة، ولكن لماذا لا أستطيع نسيانَ الذلّ الذي تعرضتُ له منذ أكثر من عشرين أو ثلاثين عامًا؟ في كل مرة يظهر فيها مشهدُ جنديٍّ جريحٍ ينهضُ من بركةِ دمائه في أي فيلمٍ أو مسلسلٍ تلفزيوني، ويرفعُ سلاحه، ويهتفُ بشعاراتِ الثأر مُنقضًا على عدوه، يغمرُ الحزنُ والأسى قلبي، وتمتلئُ عيناي بالدموع. وعلى الرغم من أنني شاهدتُ هذه المشاهد كثيرًا، إلى جانب أنها أصبحت قديمةً ومبتذلة، فإنني لا أسمحُ لأولادي أن يتلفظوا بهذا الكلام، فما إن يقول أحدهم شيئًا حتى أشتمه قائلاً: "أيها الوضيع الصغير، ما الذي تفهمه أنت!"

Twitter: @ketab_n

3 ـ إساءةُ فَهم السعادة

لم أكن أتوقع أنني سأصلُ إلى منطقةَ التحرير بعدَ فواتِ الأوان، فقد تلاشى دخانُ البارود في هوان خاي(*)، وسكتَ صوتُ القذائف. وانغمسَ جنودُ منطقةَ التحرير في ذورةِ الفرح، وهم يستعدون لعبورِ نهرِ اليانغستي! أما نحن الطلبةَ القادمين من منطقةِ جيشِ حزبِ الكوميتانغ فقد أُوقِفنا في منتصفِ الطريق، وأُلحقنا بصفوفِ الجيشِ التي ستعبرُ النهرَ وتتسلمُ إدارة المدن. ولأنني أتيتُ من سوجو، فبالطبع يجبُ عليَّ العودةُ إليها، لأنني على درايةٍ بالشوارع الكبيرة والحارات هناك كما أنني أجيدُ التحدثَ بلهجتِها الثقيلةِ والمزعجةِ للأذن، والتي يصعبُ فهمها، ومن السهلِ إرشادُ الآخرين كذلك. أمَّا ما يتعلقُ بماذا سنفعله لدى عودتنا لسوجو، فلم يفكر أحدٌ في ذلك، وإذا اقترح حينها أحدهم أمرًا ما، أو مهنة، أو مرتبًا، أو بيتًا وغيرها، سنكون نحن "البرجوازيين الصغار" من حزبِ الكومنتيانغ! الثورةُ هي الثورة، يمكنكَ أن تفعل ما يحلو لك، وعلى

(*) "هوان خاي: حملة" هوان خاي"، اندلعت في الفترة من السادس من شهر نوفمبر عام 1948 إلى العاشر من شهر يناير عام 1949، خلال فترة الحرب الأهلية في الصين بين كل من الحزب الشيوعي الصيني وحزب الكومنيتانغ.

Twitter: @ketab_n

مزاجِك. إلاّ أنَّ قائدَ مجموعتنا لم يقبل أن نفعل ما يحلو لنا، وتعيَّنَ توزيعُ كلِّ شخصٍ حسب تخصصه وميوله، وأسفرَ هذا عن موقفٍ مبهجٍ للغاية:

اصطحبَ قائدُ المجموعةِ مجموعتنا التي يزيد عددها على عشرين طالبًا وجمعنا في أحدِ المعابد. وفي منتصفِ المعبد كانت توجد طاولةٌ مربعة، وأعلاها وضِعت ملفاتٌ وأوراقٌ وأقلام، وجلسنا عِلى طرفي الطاولة.

كان قائدُ المجموعةِ متعلمًا، وقد تخرَّجَ من جامعة (جياو تونغ) قسم الهندسة الميكانيكية. وكان يألفنا نحن مجموعةَ المتعلمين الصغار: "الآن سنوزع كلًّا منكم في أحد الأعمال، وستأخذُ المجموعةُ بعينِ الاعتبارِ تخصصَ وميولَ كلِّ شخص، وأتمنى أن تفكروا جيدًا قبل الإجابةِ عن الأسئلة، فلن يُسمح لكم بالتصرفِ على هواكم بعد توزيعكم".

كان الجو حينها صارمًا للغاية، إلاّ أنَّ أحدَ زملائي القدامى، وكان يُلقب بدينغ صاحبِ الرأسِ الكبير تجاوز حده. وفي الحقيقة لم يكن رأسُ دينغ كبيرًا، ولكنه كان متعددَ المعارف، بإلمامه بالقليلِ من الفلك، الجغرافيا، التاريخ، الفلسفة. ولأنَّ رأسَه كان يستوعبُ العديدَ من الأمور، فقد كان يبدو كأنه أكبرُ من رؤوسِ الجميع. كان هو الشخصَ الأولَ الذي ناداه قائدُ المجموعة.

"ماذا تريد أن تعمل؟"

"أيُّ شيء". أجاب دينغ صاحبُ الرأس الكبير بحيوية.

تجهمَ وجهُ قائدِ المجموعةِ فجأةً وقال: "ماذا يكون هذا الـ أي شيء؟ كنْ أكثرَ تحديدًا".

"أكثرُ تحديدًا.....أيُّ شيء".

دوَّت ضحكاتُ الطلبةِ في القاعةِ قائلين: "إنَّه يفهمُ كلَّ شيء، فيمكنه أن يعمل أيَّ شيء".

Twitter: @ketab_n

ضحكَ قائدُ المجموعةِ كذلك، وقلَّبَ الملفات. "إلى أي مكان يذهب الشخصُ الذي يعرف كلَّ شيء؟..... أخبرني، ما هو أكثرُ شيءٍ تحبه؟"

"القراءة".

"لماذا لم تقلْ هذا إذَن، ستذهب للعمل في مكتبةِ شينخوا".

بجملةٍ تحددَ مصيرُ دينغ صاحبِ الرأسِ الكبير، وبعدها أصبح مديرًا لإحدى مكتباتِ شينخوا، وكان كفئًا لهذا العمل وجديرًا به، ومديرًا ماهرًا.

كان الشخصُ الثاني الذي نادى عليه القائد طالبةً، فتاةً من سوجو، كانت بالغةَ الجمال، أكسبتها الملابسُ والقبعةُ المثمَّنة التي ترتديها مظهرًا قويًا وسط جمالها الساحر.

ألقى القائدُ نظرةً عليها وسألها: "هل تجيدين الغناء؟"

"نعم أجيدُ الغناء".

"غنِّ مقطعًا من (الفتاة ذات الشعر الأبيض)".

"رياحُ الشمالِ تلك التي تهب....." بدأت زميلتنا الغناء. في ذلك الوقت كنا نغني كلَّ يوم، ولذلك لن يكون هناك سبب لأن يتظاهر أحدنا بالخجل.

"حسنًا، حسنًا، ستنضمين إلى فرقةِ الفنون!"

ولقد حالفها الحظ، فقد كانت تُنشد الأغاني الشعبيةَ قبل الثورةِ الثقافية، وتتمتع ببعضِ الشهرة. وهي لا تغني الآن، ولعلَّ تلك العجوز الصغيرة في مكانٍ ما تُعلِّمُ تلاميذها.

وقد ساء الوضعُ عندما حان دوري، فلم يخطر ببالي أيَّ شيءٍ أحب فعله، ففيما عدا معارضة الشَرَه، بدا كأنني لا أحب فعلَ أي أمرٍ آخر. لم يكن لدي أيُّ ميول، حتى غنائي كان يشبه عصا بامبو مهترئة تدق على جرةِ ماء.

Twitter: @ketab_n

انتظر قائدُ المجموعةِ إلى أن نفد صبره ثم قال: "ألعلكَ لا تجيد أيَّ شيء؟".

"أجيد أجيد، أيها القائد، يمكنني أن أنوب عن الأشخاص في شراءِ الوجباتِ الخفيفة، فأنا أعرف أماكن بيعها في سوجو". لم أستطع الاعترافَ بأنَّ ما يجري غيرُ معقول، إلَّا أنَّ ما حدثَ بعد ذلك تخطَّى اللامعقول!

"هذا رائع، ستعمل في التجارةِ إذَن، إنَّ أطعمة سوجو مشهورةٌ للغاية".

"لا لا، أيها القائد، إنَّ أكثرَ ما أكرهه هو الطعام".

"هل تكره الطعام؟ جيد جدًا، سأحرص على أن تُجَوِّعكَ جماعةُ الطباخين لمدةِ ثلاثةِ أيام، بعدها نتحدثُ في ذلك! التالي....."

قُضي الأمر، لقد تحدد مصيري وسط تلك القهقهاتِ المدوية. إلاَّ أنني لم أشعر بالحزن حينها، ولم يخطرْ ببالي التصرفُ كما يحلو لي، فقد كان نهرُ اليانغستي يهدرُ بغضب، وأهالي الساحل الجنوبي يهتفون، يريدون إنقاذَ الجموعِ الكادحة من الشقاءِ والمعاناة، والإطاحةَ بالمجتمع القديم الذي يأكلُ فيه البشرُ بعضَهم البعض! ولن يستطيع تشو زي تشي وأصدقاؤه الاستمرارَ في تلك الحياةِ الماجنةِ الطفيلية! يا تشو زي تشي، تشو زي تشي، لقد خرجَ الأمرُ عن سيطرتك هذه المرة. فنحن لن نتركَكَ جائعًا، بل على الأقل سنجعلكَ تطبخُ شيئًا ما لنفسك. ولن نجعل آه آر يسحبك على الدوام، إنك تملك قدمين، تستطيع المشيَ بهما.

"زئيرُ الرياحِ والنهرُ البارد، وعاد المحاربُ الشجاعُ بعدَ رحيله". عدتُ إلى سوجو مرةً أخرى، وبعد انعطافاتٍ عديدةٍ في الأحداث، عدتُ للسكن أمام منزله. وتغيرت نظرةُ تشو زي تشي نحوي، فصار يناديني بالرفيق، وأنا أدعوه بالمدير، وكان دائمًا يقدمُ لي سجائرَ من نوع (سان باو تاي)، لكنني حينها أُخرجُ سجائري من نوع (شوانغ فو) وأرد سجائره. لا تتصرف

Twitter: @ketab_n

معي هكذا، سجائرُكَ الغاليةُ مغمورةٌ بدماءِ الشعب وعرقه، وتتبعثُ منها رائحةٌ زنخة عندما تنفثُ دخانها. كان يعتري تشو زي تشي بعضُ الخوفِ قبل التحرير، وكان يخشى أن يسجنوه، كما أنَّ طعامَ السجنِ ليس شهيًا!

ولكن بعد مرورِ بعضِ الوقت، صار تشو زي تشي هادئًا مطمئنًا، وذلك لأنَّه مع حظر الدعارة وتعاطي الأفيون، ومقاومةِ البلطجيةِ المحليين، وقمعِ أعداءِ الثورة، إلى حركةِ المكافحاتِ الثلاثة (1) وحملةِ المفاسدِ الخمسة(2)، لم يمسَّه شيء. فهو لا يتعاطى الأفيون ولا يلعب القمار، ولا تثيرُ المومسات اهتمامه، وفيما عدا تناول الطعام لم يرتكبْ شيئًا على الإطلاق. ولم تطله حركةُ قمعِ أعداءِ الثورة، ولا يوجد ما يجعله يتهرب من الضرائب، كونه لا يملكُ مصنعًا أو متجرًا.. ولهذا كان دائمًا يرفع إبهامه ويقول لي: "إنَّ الحزبَ الشيوعي جيد، لا يوجد الآن قطاع طرق ولا لصوص، ولا نوادٍ للقمار ولا أماكن لتعاطي الأفيون، ولا بلطجية، ولا متشردون، ولا عاهرات، والجو هادئ، والناس مطمئنون، وهذا أمرٌ رائعٌ للغاية!" ولعلَّ ما قاله صحيح، لكنني تأملته من أعلى إلى أسفل، وفكرت في سري، لماذا لم تقلْ يوجد طعامٌ وفسوقٌ وقمار؟ فأنتَ لا تقرب القمار والعاهرات، لكنك لا تستطيع العيش بعيدًا عن الطعام. انتظر وسترى، لقد حانَ وقتُ الديمقراطيةِ الجديدة!

إلاَّ أنَّ تشو زي تشي لم ينتظر هادئًا، بل واصلَ تناول الطعامِ بحيوية، يجلسُ كعادته في عربة آه أر ويذهب إلى محل المكرونة، وإلى مقهى الشاي، ويبحث كالعادة عمَّن يشتري له الوجباتِ الخفيفة.

في ذلك الوقت كنتُ غارقًا في العمل، وليس لدي وقتٌ محددٌ لبدايةِ

(1) حركة المكافحات الثلاثة: مكافحة اختلاس الأموال العامة، التبذير، والبيروقراطية داخل الحزب والحكومة والجيش والمنظمات الجماهيرية.

(2) حملة المفاسد الخمسة: الرشوة، التهرب من الضرائب، اختلاس أموال الدولة، غش العقود الرسمية، وسرقة المعلومات الاقتصادية.

Twitter: @ketab_n

الدوام أو انتهائه، ولا إجازةَ آخر أسبوع، كنت أعمل بعض النظر عن الوقت، وحينما تكون الحملةُ في أوجها أنامُ في المكتب. ولكن تشو زي تشي كان أشدَّ حماسةً مني، فعندما أستيقظُ من نومي يكون قد ركبَ العربة وغادر، وحينما أكون غارقًا في النوم أسمعُ صوتَ وصولِ العربةِ أمام البوابة. وكلُّ مرةٍ يعودُ فيها إلى المنزل كان يقرعُ الجرس، وكان صوتُ الجرس يُدوِّي في بيوتِ الأزقةِ الغارقةِ في الظلامِ كقرعِ الطبول. وفي بعض الأحيان لا يعود إلى المنزل، ففي أواسطِ الصيف وبعد أن يتناول الطعام ويشربَ الخمر، يتوجه مباشرة إلى إحدى برجولاتِ الحديقةِ وينام داخلها، هناك يكون النسيمُ عليلاً، وتنتشرُ رائحةُ أزهارِ المانغوليا العطرة. وشيئًا فشيئًا زادَ وزنه، وارتفعَ كرشٌ صغيرٌ أمامه. فقالت له والدتي: "أيها المدير تشو، لقد أصابك حسنُ الحظ، كلُّ الرجالِ بعد الأربعين يزداد وزنُهم". لكنه أجابها قائلاً: "هذا ليس صحيحًا، كلما ارتاحَ المرءُ نفسيًا ازدادَ وزنُه. وليس هناك داعٍ لأن أقلق من هؤلاء اللصوص والمتشردين، وبصرفِ النظرِ عن الأموالِ التي أملكها، فقد عانيتُ أشدَ المعاناةِ سابقًا. كان لزامًا عليَّ أن أقدم الهدايا للناس في أعيادِ الميلاد، والأعيادِ والمناسبات، فإذا لم آخذ حذري سأغضبهم، وأسوأُ ما قد أتعرض له هو أن أُضرَب ضربًا مبرحًا، وأقلُّ ما قد أتعرض له أن يرمي أحدهم البرازَ على العربة التي أركبها. مثل ذلك المطعم الذي تعرضتُ فيه لموقفٍ أصابني بقلقٍ شديد: في إحدى المرات ذهبتُ مع أصدقائي وحينما كنا نتناول طعامنا في سرورٍ وابتهاج، دخل أحدهم علينا، وطلب منا أن نخلي المكان. لم أكن أدري مَن هو ذلك الشخص، وبعد مُلاسنة، كانت النتيجة أنني أغضبتُ زعيمَ مجموعةٍ من المتشردين، وضَرَبَنا أتباعه ضربًا مبرحًا، وأخذوا ما كان معنا من أموالٍ أيضًا!، إلاّ أنَّ الوضع أصبح أفضلَ كثيرًا الآن، فقد اختفى هؤلاء الشباب، بعضُهم ذهب إلى شارع (سي تشيان) (وهو المكان الذي يوجد به سجن سوجو)، والبعضُ الآخر سجلوا أسماءهم في سجلِ معارضي حزبِ

Twitter: @ketab_n

الكومنتانغ ، وانزوى كلٌّ منهم في بيته. كما أنَّ المطاعمَ أصبحتْ هادئة، وقلَّ عددُ الأشخاص وكَثُرَتْ الأطعمة، وصارت رخيصةً كذلك، وكان بإمكاني بعد تناولِ الطعام واحتساءِ الخمر كعادتي أن أنام في الحديقة، ولا أقلق من اللصوص". رَبَتْ تشو زي تشي على كرشهِ الصغير: "أخبرني، كيف لا يمكن ألَّا يزيد وزني!"

حينما سمعتُ حديثه تغيرت ملامحُ وجهي على الفور، لم أتوقع على الإطلاق، أن تكون الثورةُ بالنسبةِ له أمرًا يحمل معنى التحرر!

وبعد أن أستيقظ في الليل على صوتِ قرعهِ الجرس، يتصاعدُ في قلبي شيءٌ من الغضب والغم، كيف تكون سوجو جنتَهم أيضًا؟ فعندما تحرر الشعبُ الكادح، كانت هذه الكائناتُ الطفيليةُ تغطسُ في الشوربة والمكرونة، وتَسْمُن! لم يكن بإمكاني التأثير في تشو زي تشي، لكنني أملك حقَّ نشرِ النظريةِ الشيوعيةِ الآن، وقررت أن أبدأ بتشجيعِ سائقِ العربةِ آه أر.

كان آه أر يسكنُ في أول الحارة، بجانب البئر العمومية. كان في عمري تقريبًا، إلَّا أنَّه كان أطولَ مني، وسيمًا، وقويًا. وحينما كنا صغارًا كنا نلعب الكرةَ في الحارة، وعندما نقذفُ الكرةَ إلى سطحِ المنزل كان دائمًا يصعد لجلبها. كان مسقطُ رأسهِ في سو بي، وكان والده يعملُ سائقًا للعرباتِ أيضًا، وعندما كبر والده عمل ابنه بدلاً منه. كان آه أر يوصل تشو زي تشي ثلاثَ مراتٍ في اليوم، وما تبقى له من الوقتِ يبحثُ له عن زبائن آخرين. كانت عربته تتدرج تحت فئة "ميكروباص صغير"، بها مظلة، وبوق، وجرس دواسة، وسجادة يمكن وضعها على ركبةِ الزبون في الشتاء والربيع. وكانت العربةُ الجميلةُ ملائمةً للسائقِ الوسيم، وبهذا كانت تجذبُ الزبائنَ بسهولة. خاصةً ممثلاتِ الغناءِ القصصي الذاهباتِ إلى المسرح، فبحمرةِ خدودهن، وحواجبهن الرفيعة وشفاههن الوردية، والتشيباو الذي يرتدينه، والبيبا الذي يحملنه، لا بد لهن من ركوبِ عربةِ آه أر. كان آه أر يسحبهن برشاقة عبر المدينة، يتصاعد صوتُ البوق من عربته، ورنينُ الجرس، وهذا يجعل

Twitter: @ketab_n

نظرات المارة تتجه ناحيتهن؛ حتى إن وصل إلى مدخل المسرح، فهو لا يقلل من سرعته، بل يقبضُ بشدة على مقبضي العربة، ويدفع جسمه إلى الخلف، ويفرمل، ثم يقف بهدوء أمام درجاتِ سُلَّمِ المدخل، بالضبط كما تتوقف فجأة عرباتُ الصالون ماركة Shanghai SH760 في شانغهاي. بعدها تنزل الممثلاتُ حاملاتِ البيبا، ويتمايلن بخصورهن، وبنظراتهن الساحرة، ويضربن الأرضَ بكعوبهن العالية، ثم يختفين داخل ستائر المسرح الخَرَزِيَّة. كان هذا المشهدُ أنيقًا، وساحرًا للغاية. لتفكر في الأمر، إذا ركبت إحدى الممثلات الجميلات عربةَ جرٍّ بالية، يجرُّها شيخٌ أحدبٌ مترنحُ الخطوات، وأوصلها إلى مدخل المسرح، فأيُّ مشهدٍ سيكون هذا! ولأنَّ الناسَ لا يرون ولا يستطيعون تمييزَ الجمالِ والسعادة في حياتهم، يذهبون برضاهم إلى الفنانين وينفقون المالَ في سبيل التَّعَلُّم.

ولجميعِ الأسبابِ التي ذكرتها سابقًا، وعلى الرغم من أنَّ آه أر يعملُ سائقًا للعربات، إلَّا أنَّ أحوالَه المعيشيةَ ميسورة. حين ذهبتُ للحديثِ معه كجزءٍ من عملي، كان وعائلته يتناولون وجبةَ العشاء في الباحة الصغيرة. كان أمامهم أرز أبيض، ونوعان من الخضار، وكان في الصحن أيضًا إوزة وشرائح التوفو، وكان والده العجوز يصب خمر شاو شنغ ويشربه. وبعد تبادل التحيات دخلتُ في الموضوع الأساسي:

"آه أر، نحن في فترةِ التحرير الآن، كيف ترى هذا الأمر؟"

كان آه أر شخصًا شجاعًا صريحًا، ولم يتردد في إبداء رأيه. "الأمر جيد، لقد أصبحت الطبقةُ العاملةُ في مرتبةٍ أعلى، ولا يجرؤ أحد على ضربِها أو شتمِها، ولا يجرؤ أحد على ركوبِ العربةِ بدون أن يدفع الأجرة".

زممتُ شفتي بعد سماعِ كلامه وقلت: "آه، كيف لكَ أن ترى جانبًا محدودًا من الصورة، إنَّ العمالَ هم سادةُ البلاد، ولن يكونوا من الآن فصاعدًا عبيدًا لأحد".

Twitter: @ketab_n

"أنا لستُ عبدًا لأحد!"

"ليس بعد، ماذا تعمل أنت؟"

"سائقُ عربات".

"حسنا، إنَّ العربات منذ القدم إلى الآن، فيما عدا القطارات والسيارات، كانت تسحبها".

"ماذا عن عربةِ اليد؟"

"إنَّها.....إنَّها لنقلِ البضائع، وليست لتوصيلِ الأشخاص. فكلُّ شخصٍ له ساقان، وإذا لم يكن مريضًا أو معاقًا، فما الداعي لأن يركب عربة، وتكون أنتَ كالماشية تركض أمامه!، أهذا عدل؟ هل تُعتَبَر شخصًا ذا سيادةٍ هكذا؟ ألا تفهم قليلًا من المبادئ الأخلاقية!"

أخذ آه أر نفسًا ثم قال:"أوه، إنَّ هذا صحيح".

وتنهد والده وقال: "لا يوجد أمامنا حل، إنَّه يدفع النقود".

"النقود.....!".

رفعتُ نبرةَ صوتي وأنا أقول كلمة النقود، لأعبر عن ازدرائي: "هل تعلم من أين جاءت أموال تشو زي تشي؟ لقد جاءت من استنزاف دماءِ وعرقِ الشعبِ الكادح، إنك تأخذ بعضًا من دمائِك وعرقك وتعطيه إياه لينعمَ بالراحة!"

رفع آه أر حاجبيه. "هذا صحيح، ذلك الرجل يصعبُ إرضاؤه، يريدني أن أُسرِع، ومع ذلك يخاف السقوطَ من العربة".

حينها انتهزتُ الفرصةَ لأطرقَ الحديدَ وهو ساخن: "إنَّ المشكلة ليست في تشو زي تشي، إنَّ نظرتنا نحن الشباب يجب أن تكون بعيدة، انظر إلى الاتحاد السوفييتي....." بدأت حينها أسترسل في الكلام عن الاتحاد

Twitter: @ketab_n

السوفييتي، كما يتحدث الناسُ الآن عن الولايات المتحدة الأمريكية، "إنَّ كلَّ فردٍ من الطبقة العاملة في الاتحاد السوفييتي، يُعتبَرُ سيدًا للدولة، ومهما كان الأمر، فمن غير موافقتهم لن يمر شيء. وكما أنهم جميعًا يعملون في قيادةِ السيارات، وإدارةِ الماكينات، وقيادةِ الجرَّارات، لا يوجد فيهم مَن يملك عربةَ ركشا". نظرتُ نظرةً غاضبةً إلى كأس والده؛ "إنَّ جرَّ العربة للحصول على بعض المالِ هو إثم، وعملٌ يجعلك تعيش عيشةً ضنكًا. إنَّ الطبقةَ العاملةَ في الاتحاد السوفييتي تملك بيوتًا كالأجانب، وتركب السيارات، ومنازلهم بها أرائك، ومذياع أيضًا! أيُّ خَمرٍ خَمرُ شاو شنغ هذا، الناس هناك يشربون الفودكا!"، يا إلهي، حينها لم أكن أعرف ما هي الفودكا، وبعد مرور العديد من السنوات شربتُ بعضًا منها، وكان شربها يشبه شربَ النبيذ الأبيضَ المُقطَّر من الحبوب ولكن مع إضافةِ بعض الماء!

لم يكن آه أر ووالده يعرفان ما هي الفودكا، وكانت هذه المرةَ الأولى كذلك التي يسمعان فيها تلك الكلمة. لكن ذلك الشيخ أخذ يتمتمُ إعجابًا، مُعتقدًا أنَّ الفودكا مثل خمر موتاي.

كما تأثر آه أر كذلك: "أوه.....، لدى مستقبل إذَن. بابا، لا يجب علينا أن نجرَّ العربات بعد الآن، لقد عملت أنت كذلك عبدًا طوال حياتك!". وبالطبع لم يتخذ آه أر موقفه هذا بسبب الفودكا، كنت أعلم، أنَّه يريد قيادةَ السيارات. في تلك الأوقات، كانت أقصى طموحات سائقي عربات الركشا أن يعملوا سائقي سيارات.

رفع والده كأسَ الخمر قائلًا: "..... أكمل طعامك، يجب عليك النوم مبكرًا حتى تستطيع الاستيقاظ لتوصل تشو زي تشي إلى محل المكرونة". كان ما شرحته بلا جدْوى، كأنه لم يسمع شيئًا مما كنت أقوله طوال الوقت. إنَّ تفكير الشيخ محدود محافظ، فلتُسايره!

أمسكت بآه أر ولم أفلته، وحددت معه موعدًا ليأتي إلى منزلي، وواصلت إقناعه بالمنطق، وقمت بذلك عن طريق سردي تجربتي

Twitter: @ketab_n

الشخصية، واتخذتُ من نفسي مثالاً: "انظر إليَّ، عندما تخرجتُ في المدرسة الثانوية، طلب مني أحد زملائي أن أذهب إلى شي شان وأعملَ مدرسًا في مدرسة ابتدائية، وتسلم كلَّ شهر 150 كيلوجرامًا من الأرز، وعندما يكون موسمُ البشملة نأكلها، وعندما يكون موسمُ التوت الأحمر نأكله، لا حاجة للمال. وهناك زميلٌ آخر طلب مني أن أذهب إلى هونج كونغ وأدخلَ الجامعة، وكان والده يعمل مديرًا هناك، ووعدني أن يعطيني ثمانين دولار هونغ كونغ، وبعد أن أتخرج سيُبقيني للعملِ لديه في الشركة. فلماذا لم أذهب إذَن، إنَّ الإنسانَ لا يعيش من أجل الطعام، ولا يجب عليه أن يعمل عبدًا لدى أحدهم من أجل الحصولِ على الطعام كذلك"، وإلى جانب ذلك، استعنتُ بكومةٍ كبيرةٍ من "مجلة الاتحاد السوفييتي المصورة" ليراها، ولأوصلَ إليه مقصدي عن طريقِ التخيل، ولأوضحَ له كيف يجب علينا نحن الشباب أن نكافح من أجل طموحٍ عظيمٍ كهذا. وفي الحقيقة، إنَّ سببَ قدرتي على الحديثِ عن الاتحادِ السوفييتي، هو تصفح تلك المجلات المصورة، فقد كانت صورها بديعةً على الدوام!

وكان من الطبيعي أن يزداد وعي آه أر، وتشاجر مع والده، وصمَّمَ ألاَّ يجرَّ العربات بعد الآن، ويبحث له عن مهنة أخرى. كانت أقف بجانبه وأشجعه: "حسنًا، إنَّ ما فعلته صائب، أفضل شيء لك أن تبحث عن عمل في مصنع، وتكون عاملاً هناك!"

وبعد مرورِ وقتٍ غيرِ طويل، عاد آه أر يجرُّ أذيالَ الخيبة. "لقد بحثتُ في سوجو كلها، ناهيك عن العمل في المصنع، فحتى المطاعم لا تريد ندلاء!"

قلت في عجالة: "يجب عليك أن تثابر، ولا تشعر باليأس أو الخيبة"

"أنا لا أشعر باليأس أو الخيبة، بل معدتي غير قادرة على التحمل، لا يوجد ما أتناوله!"

عندما سمعت ما قاله شعرت بالقلق: "آه، هذه مشكلة خطرة، فلتتحمل قليلاً، سأساعدكَ على إيجادِ حل".

Twitter: @ketab_n

أقرضته بعضَ المال، وذهبتُ على الفور إلى أحد رفاقي في مكتب الشئون المدنية، وكنا قد اجتزنا نهر اليانغستي معًا.

وما إن سمع ذلك الرفيق ما قلته حتى غمغم معبرًا عن رفضه ما قلت: "يا لك من مستهترٍ أيها الأخ، لا تفكر جيدًا قبل أن تقوم بأمرٍ ما، يوجد العديد من الرأسماليين الآن تراخوا في أعمالهم، وسحبوا رؤوسَ أموالهم خشيةَ الخسارة، من حسن حظنا أنهم تركوا البابَ مواربًا، إلى أين تريد أن تذهب لتبحثَ عن عمل؟"

"حسنًا حسنًا، سأنتقد نفسي ذاتيًا. لكنك لا تستطيع أن ترى أحدًا يموت وتقف مكتوف اليدين. لنفكر في حلٍ".

أطرق ذلك الرفيق مفكرًا لفترة ثم قال: "حسنًا اسمع، أنا أباشر الآن فتح الباب التسجيل للعاطلين عن العمل، وتأمين تشغيلهم مقابل الغذاء، فلنحل أولاً مشكلةَ الطعام".

كانت المَهَمَّة هي تنظيفَ ضفافِ النهر في سوجو، وكان هذا العملُ مرهقًا، ولكنه يحمل معنى. فقد ترك المجتمعُ القديمُ لنا ماءً ملوثًا بالقاذورات، لذلك يجب علينا أن نطهر هذا الماء، ونجعل من فينسيا الشرق اسمًا على مُسمًّى، ونجعل هذه الجنةَ أكثرَ سحرًا. كانت هذه إحدى جوانب ثورتنا.

عندما علم آه أر أنَّ هذا عملٌ ثوري، لم ينطق بكلمةٍ أخرى، ولم يتحدث عن المال، وذهبَ لتنظيفِ القاذورات، وحملِ الطوب، كان العملُ منهكًا أضعاف سحب العربات، لكنه كان يحصل كلَّ يومٍ على مقدار ثلاثة جين من الأرز.

أما والده فكان عاجزًا، وحتى يحصل على الطعام، اضطر إلى فرشِ بسطةٍ وبيع الثوم والبصل أمام باب منزله. ولأنهم كانوا يسكنون بجانبِ البئرِ العمومية، فإنَّ الناس دائمًا أثناء غسلهم الخضراوات يتذكرون أنَّهم

Twitter: @ketab_n

لم يشتروا الثوم والبصل من السوق، ولهذا كانت أموره جيدة، ولكن آثار الإزوة وخمر شاو شنغ اختفت من المنزل. وكان هذا الشيخ يحدجني بنظرات متجهمة عندما يراني ويشيحُ برأسه جانبًا. كنتُ أشعرُ بالأسف حياله، وكنتُ دائمًا أواسيه في سري: "يا عمي، لا تغضب مني، ستشرب الفودكا يومًا ما!". كنتُ أرى نظرته المتجهمةَ سوطًا يجلدني. "اشتغلْ بجهد، لانتصار الاشتراكية!" وفي كلِّ مرة أجرُّ قدميَّ المتعبتين في الظلام الحالك وأعبر ذلك الزقاقَ الساكن، أنظرُ إلى شباك منزل آه أر، وأغمغمُ بهدوء: "يا عمي، لن يخذلك قاو شياو تينغ، أنا لا أخاف الشقاء، ولا أخشى التعب، أنا أناضل وآه أر من أجل الغد!" .

وبسبب آه أر، صبَّت والدتي جامَ غضبها عليّ: "أنت الذيَ لا تستطيع التمييز بين الخطأ والصواب، في أيِّ شيءٍ سببَ لنا المديرُ تشو الأذى؟ الرجل يدفع المالَ ليركبَ العربةَ فتعيقه أنت بأمورك الغبية، وتمضي في إصرارك على معارضة الآخرين، جَعلتَ آه أر لا يستطيع الحصولَ على المأكل والملبس، وجَعلتَ المدير تشو غيرَ قادرٍ على الخروج بشكلٍ مريح، وعاجلاً أم آجلاً سيكون على الجميع أن يخرجوا إلى الشارع ويُوقفوا العربات، وفي بعض الأحيان سيبتلون كدجاجٍ في حساء، أنت أيها الشيء الذي يفتقر إلى الأخلاق!"

وبالتأكيد لن أتجادل معها، فبعد التحرير لا يمكنني أن أجعلها تذرفُ الدموعَ مرة أخرى. بالإضافة إلى أنَّه لا يمكن الاتفاق في نظرتنا إلى الأخلاق، إنها لا تزال تؤمنُ بخضوعات المرأة الثلاثة وفضائلها الأربعة(*)، وتعتقد أنَّ عاهرات أوبرا بكين العجائز لا مثيلَ لهن. وحينما استقبلتُ شتائمها وتوبيخها، لم أجرؤ على الاقترابِ من الشخص الذي يشتري لتشو تزي تشي الوجباتِ الخفيفة، فقد كان رجلاً شيخًا، لا يستطيع حمل الطوب.

(*) بخضوعات المرأة الثلاثة وفضائلها الأربعة: خضوعات المرأة الثلاث (للأب قبل الزواج، للزوج بعد الزواج، للابن بعد الترمل). وفضائلها الأربعة في السلوك والأدب والمظهر والعمل.

Twitter: @ketab_n

أما تشو زي تشي فقد تغيَّرت معاملتُه لي، لم يعد يناديني بالرفيق، أو يقدم لي السجائر، وعندما يراني عند مدخل المنزل يحني رأسه، ويمر بجانبي مغادرًا. ولم أستطع رؤيةَ عينيه، ولا أدري أكانَ يكرهني، أم يتجنبني؟ ومع ذلك، كان يحملُ في يده دائمًا الأشياءَ نفسها، شنطة من القش، بها كالوش، ومُعلَّق بها مظلة بشكل أفقي. لأنه لا يستطيع توقع حالة الطقس عند خروجه في الصباح ، ولهذا يحمل المظلَّةَ دائمًا، حتى لا يبتل كدجاجة في حساء إذا ما عجز عن العثورِ على عربة. وكنت أفرح في سري عندما أراه هكذا: "عاجلًا أم آجلًا سيتوجب عليك أن تكسب رزقَك بنفسِك، وستتعلم بهذه الطريقة".

Twitter: @ketab_n

4 ـ الهجوم

ومن المرجح أنَّ قائدَ المجموعة قد سجَّل شيئًا ما في ملفي، جعل عملي لا ينفصل البتة عن الطعام. ولم تكن المؤسساتُ العامة ـ الخاصة المشتركة ترسل عددًا من المندوبين، لذا كنتُ مضطرًا لأن أكون تكملةَ عددٍ وأذهب بنفسي إلى أحد المطاعم المشهورة لأعملَ مديرًا بها.

وكنتُ أعرفُ المطعمَ الذي ذهبتُ إليه معرفةً جيدة، لكنني لم أكن أذهب إليه قبل التحرير، كنتُ أقف فقط أمام مدخله وأرى العديدَ من الأغنياءِ الداخلين والخارجين، وأرى أمام المدخل الكثيرَ من المتسولين، وأرى المأكولاتِ الشهيةَ التي تظهر عبرَ واجهةِ المطعم، وتُسيلُ لعابَ المرءِ عبرَ ضوءِ النيونِ المنعكسِ عليها. وقد قرأتُ من قبل قصةَ الكاتب الدانماركي أندرسون القصيرة (بائعةُ الكبريت)، وكان يراودني على الدوام شعورٌ بأنَّ الفتاةَ بائعةَ الكبريت قد ماتت أمامَ واجهةِ ذلك المطعم. وحينما ذهبتُ إلى المطعم كان فصلُ الشتاءِ قد حل، وكان الثلجُ يندفُ طوال الوقت، وعندما كنتُ أطأُ طبقاتِ الثلجِ صباحًا متوجهًا إلى المدخل، كان قلبي يتقلص فجأة، وخشيتُ أن تكون هناك بالفعل فتاةٌ ترتمي أرضًا، يتناثرُ الكبريتُ حولها.

Twitter: @ketab_n

وقد كنتُ أشعرُ بالاضطراب داخل المطعم كذلك، خاصةً أنني كنتُ أمقتُ رؤيةَ هذا السلوك حيث يتناول الناس طعامهم بنهمٍ وزهو. كان ثلث الطعام على الطاولةِ الواحدة يضيع هباءً، وكانت حاوياتُ الفضلات تمتلئ ببقايا السمكِ واللحم والأرز الأبيض. لقد تحول الأمر من "فَسَدَ اللحم وخَمَّ الخمرُ في القصرِ الوسيع" إلى "فَسَدَ اللحم وخَمَّ الخمرُ في المطعمِ الوسيع"، وإذا أفلَتُ العنانَ للأمور وكنتُ مُتسيبًا، فأيُّ ثورةٍ قمتُ بها؟

في البدايةِ ناقشتُ جميعَ الموظفين، لأرى لصالح مَن يخدم هذا النوع من المطاعم؟ وكم عاملًا وفلاحًا من بين هؤلاء الأشخاص يأتون لتناولِ الطعامِ بشَرَه، وكم من هؤلاء الأشخاص بيروقراطي ورأسمالي؟ ولم يكن ثمة فائدة من المناقشة، فلم يكن هذا سوى نوع من التحفيز لأجلِ النضال. وقد كان كلُّ عامل على درايةٍ كاملة، بأنه لا يمكن لأيِّ فلاح أن يأتي لتناولِ الطعامِ في المطعم، فهُم ما إن تقع أنظارُهم على تلك البوابة الفخمة، حتى لا يدرون ما هي كميةُ الأرز في الوجبةِ الواحدة!، وهذا ليس أفضلَ من ذهابهم إلى معبد (يوان مياو) وتناولِ الطعامِ في أحدِ الأكشاك، فالطعامُ جيد، وأغلى وجبة تكلف ثلاثة ماو. وكم مرة يمكن للعامل أن يأتي إلى المطعم في حياته؟ إنَّا إذا كانت لديه مسألة خاصة ما. لكن الجميع كان يعرف تشو زي تشي، والجميع يعرف كيف يحب وجبته وشهيته المفتوحة. وكان الندلاء يحفظون قائمةً طويلةً من أسماء الزبائن القدامى الذين يترددون على المطعم، ولم يكن من بين هؤلاء جميعًا برجوازيٌّ واحد. وإنما بعض الموظفين الكبار الذين لا يمكن تحديد منشأهم الطبقي، وحسبما قاله النادلُ العجوز جانغ، إنَّ منهم أقارب صاحب المطعم، وبعض الرجال المشهورين الذين يعرفهم صاحبُ المطعم، وكلهم يملكون أسهمًا. وبالطبع، ليس كل مَن يرتاد المطعم يوميًا من الزبائن القدامى، ولا يمكنني أن أطلب من كل زبون أن يملأ استمارةَ بياناته كاملة. ولكن، كان الندلاء القدامى في المطعم خبراءَ في تحديدِ هويةِ الزبون، فمن الملابس، والتحية، والملامح،

Twitter: @ketab_n

خاصة من الطعام الذي يطلبونه، كانوا يعرفون أنَّ القسمَ الأكبرَ من الأشخاص ليسوا من العمال أو الفلاحين، أو على الأقل لم يكونوا عمالاً أو فلاحين في وقتٍ من الأوقات.

وفي الفترة التي نفذنا فيها إصلاحاتٍ للمنشآتِ الخاصة، لم يكن جميعُ الرأسماليين مبتهجين بشكلٍ كبير، ولم يكونوا جميعًا راغبين في إحداثِ جلبة، وكان هناك بعضُ الأشخاصِ الذين بدوا كأنهم رأوا نهايةَ العالم عبرَ تلك الجلبة، وكانوا يتوافدون على مطعمنا لشرب الخمر. يطلبون أكلات سوجو المشهورة، ويأكلون، ويجرعون الخمر. وحينما يسكرون لا يمكنهم كبحَ أنفسِهم: "يا أصدقائي، كلوا، كلوا المسمارَ المُلوَّبَ في جرارِهم!". كان هذا الكلام يحمل استعارةً خفية، لأنَّ رمزَ الجرَّار كان العلامةَ المعبرةَ عن الاشتراكية في ذلك الوقت. وحينما تتحدث عن الفلاحين الاشتراكيين فالأمر يشبه الاتحاد السوفييتي، مزارع شاسعة، وجرَّارات. "كلوا المسمار المُلوَّبَ في جرَّارِهم!". بالطبع لم يكونوا راضين عن الاشتراكية، ومغرورين، كما كانت لهجتهم قاسيةً للغاية!

وقد كتبتُ تقريرًا وافيًا يحتوي على عشرين ألفَ كلمةٍ استنادًا إلى ما جمعته من معلومات، وما أعرفه عن تشو زي تشي، وعلى التاريخ حتى الوضع الحالي، واقترحتُ القيامَ بتعديلات في المطعم، كان موقفي واضحًا، وكلماتي صادقةً صريحة، ومعلوماتي مؤثرةً لا تقبل الشك، وكان يمكن لهذا التقرير أن يكون مرجعًا فيما يخص الإعلانَ عن مكافحة النَهَم.

وقد أثنى القائدُ على تقريري، واعتمده على الفور لتجريبهِ في هذا المطعم، ومن ثَم تطبيقه على بقيةِ المطاعم بعد اكتسابِ الخبرة.

وتابعتُ عملي بشجاعة!

في البداية أُزيلت أضواءُ النيون عن مدخل المطعم، والأضواءُ الحمراءُ والخضراءُ عن واجهته. كنتُ أحملُ انطباعًا غائرًا إزاء هذا النوع من

Twitter: @ketab_n

الإنارة، التي تُشعِرُ المرءَ بالدوار والتي ما إن تقع عليها عيني حتى أتذكرُ المجتمعَ القديم. كنتُ أشعرُ أنَّ هذه الأضواء تجعل المرءَ مرتبكًا، منحلاً، وأنَّها نوعٌ من مظاهر المجون والفجور المترف. لقد ولَّى عصرُ الفسوق ولن يعود مجددًا، فهل يجبُ الإبقاءُ على آثارِه البشعة؟ أزيلوها!

كان تصميمُ المطعمِ بحاجة إلى تغيير كذلك، حتى لا يُنفِّرُ العمالَ والفلاحين. يجبُ أن يكون فسيحًا، بسيطًا، لا غرفًا صغيرة كثيرة، وأن يتمكن مرتادوه من تناولِ الطعامِ كما يحلو لهم إذا ما كسبوا المال من العمل. لا يوجد غيرُ مصاصي الدماء هم مَن يختبئون. أزيلوها!، إزالةُ تلك الغرف يمكن أن تجعل المكانَ أكثرَ اتساعًا، وتتيحَ الفرصةَ لعددٍ كبيرٍ من العمال لتناولِ الطعام.

كما أنَّ أسلوبَ الخدمة بحاجة إلى تغيير أيضًا. فالعاملُ ليس نادلًا، بل هو من طبقةِ العمال، ولا يمكنه أن يُعلِّق خرقةً على كتفه، ويومئَ برأسه وينحني إذا قابله أحد ، ويضفي ابتسامةً على وجهه، ويدور جيئةً وذهابًا مع الزبون، ويمسحَ الطاولاتِ هنا وهناك، ويكون حيويًا كأنه يُمَثِّلُ في الأوبرا. كلنا رفاق، فهل يجب أن يكون البعضُ أقلَّ من البعضِ الآخر، وهل يجب أن نكون مخادعين!، ستُوضعُ أعوادُ الطعام والصحونُ والأكوابُ في مكانٍ محدد، مَن يُرِد استخدامها يذهب بنفسه، ويتصرف كأنه في منزله، مَن منا لا يأتي بأعوادِ الطعامِ والصحونِ بنفسه في منزله، إلَّا إذا كنتَ سيدًا!

لم يعترض العاملون على التجديداتِ الثلاثة السابقة، بل شعروا بأنها منعشة، وبها قَبَسٌ من أنفاسِ الثورة. لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، ما أن لمست جوهرَ ذلك التجديد وأردت تحديثَ قائمةِ الطعام.

كنت أعتقد أنَّ تحديثَ قائمةِ الطعامِ هو الأمرُ الأكثرُ أهمية من بين تلك الإصلاحات، وإلاَّ سيكون التحديث مجردَ نزعةٍ شكلية. كانت هناك "سمكة

Twitter: @ketab_n

اليوسفي بالصنوبر على شكل سنجاب"، "كرات الدجاج"، "لحم السلطعون مع قلب الملفوف"..... كانت باهظةَ الثمن، مَن يمكنه تناول ذلك؟ المأكولات الشعبية، الشوربات الشعبية، وجبة واحدة مع طبق من الحساء بخمسة ماو، تكفي لشخصٍ وتُشبعه. وإذا أراد أحد أن يحظى بوجبة أفضل، لا مانع لدي، يجب أن يحدث بعضُ التغيير في معيشةِ الناس، وكان جيشُ الثورة يتناول دائمًا وجبةً دسمة، كانت صحنًا من "لحم الخنزير المقطع بالصلصة البنية"، كانت طعامًا بسيطًا. أمَّا أن تطلب وجبات "الملفوف مع شرائح اللحم الرفيعة"، "قطع السمك المطهو بصلصة الصويا"، "كبد الخنزير المقلي والثوم"، "كريات اللحم مع الملفوف الصيني"..... فهذا يكفي أيَّ أسرةٍ عاملة تأكلُ هذه الوجباتِ في منزلها كلَّ يوم؟

من هنا بدأت الاعتراضات تأتي تباعًا، وكانت من العاملين القدامى في المطعم.

اعترض النادل الأسطى جانغ. وكان حديثه يحملُ شيئًا من المرح الجامد: "آه، هذه القائمة التي غيرتها فجأة؛ ألن تجعل المطعمَ مثل المطاعم الصغيرة!، أيها المدير قاو، بما أنَّ هناك إصلاحًا جذريًا، فلتوزعوا لوحين من الخشب لكلِّ شخص، واجعلونا نبني أكشاكًا لبيع الطعام في محطةِ القطار.

عندما سمعت ذلك رفعت عينيّ قائلاً: "أيها الرفيق، مَن منكم لديه رأي يمكنه المشاركة به، يجب أن نكون صارمين بعض الشيء، إنَّ هذا عملٌ ثوري، وليس مزاحًا مع الزبائن!"، كنتُ أعلم أنَّه تعاملَ مع العديد من الزبائن الرأسماليين، أكانوا رجالًا أم نساءً على مدى عشراتِ السنين، وكانت لهجتُه حادة، لهذا أشرت إليه بشكل خاص.

"حسنًا حسنًا، لا يوجد لدى ما أقوله، يمكننا بهذا الشكل أن نوفر بعضَ المجهود". اقتنع الأسطى جانغ.

Twitter: @ketab_n

وقد علّق أمينُ الصندوقِ كذلك قائلًا: "أيها المدير قاو، لعلَّ رأيي لن يكون في محله، والأمرُ هو أنني قلقٌ بعض الشيء..... انظر، إنه بالطبع لأمرٌ صحيحٌ أن نقوم بذلك، ولكن ألن تكون هناك مشكلة في الأرباح؟" كان صوته مضطربًا خائفًا، لأنه كان في الأصلِ أحدَ أقاربِ صاحبِ المطعم، وقد مَسَّته قليلاً حركةُ المكافحاتِ الثلاثةِ والمفاسدِ الخمسة.

"لقد أخذتُ في اعتباري تلك النقطة، ولكن المؤسسات الاشتراكية هي من أجل خدمة الشعب، ولا يمكن على الإطلاق أن يكون همنا الوحيد هو جني المالِ كالرأسماليين".

صحيح صحيح، صحيح صحيح صحيح". هدأ أمينُ الصندوقِ في الحال.

أمَّا الذين كان من الصعبِ إقناعهم فهم هؤلاء الطهاة، وإذا استخدمنا المقاييسَ الوظيفيةَ الدارجةَ حاليًا لتقييمهم فإنهم ليسوا من الدرجةِ الأولى بل الثانية. يمكنهم تأليف الكتب والحديث عن النظريات، ويمكنهم أن يسافروا إلى الخارج ويقدموا عروضًا. لكنني في ذلك الوقت لم أضع هذه المهاراتِ الاستثنائيةِ نُصبَ عينيّ، ولعلَّهم أيضًا لم يضعوا افتقادي الخبرةِ نُصبَ أعينهم، خاصةً ذاك الذي يُدعى يانغ تشونغ باو، كان يبدو كأني أقطع لحمه.

"أليس ذلك معناه أننا نبيعُ الطعامَ المنزلي؟"

"وماذا في ذلك؟"

"الطعامُ المنزليُّ يمكن لأي شخص أن يعده في المنزل، ما الحاجةُ لإعدادهِ في المطعم؟"

"هل ترى أحدًا يخرج من منزله حاملًا القِدر ويمشي به في الشارع؟"

"الذين يخرجون من بيوتهم يرغبون في تناولِ الأكلاتِ المعروفة، أوه، هل

Twitter: @ketab_n

كراتُ لحمِ الخنزير بصلصةِ الصويا المطهوةِ ببطء هي من أكلاتِ سوجو المعروفة؟"

"أيُّ الأشخاص تقصد؟"

"كلُّ الأشخاص، بمَن فيهم موظفون مثلك!"

"عندما أخرجُ في مَهمَّة أحصلُ على ثلاثة ماو للطعام، وماوين علاوة، أنفقُ خمسة ماو للوجبة، أما وجبتا الإفطار والعشاء فلا أتقاضى عنهما بدلًا!"

"ليس كلُّ الناس مثلك، فهم يمكنهم تحمل نفقاتهم".

"علاوات، عن أي علاوات تتحدث؟ ثمة العديد من الأشخاص يصبحون نهمين عندما يخرجون في مَهمَّة عمل، بهذا يختلسون الأموال العامة".

"ماذا إذا دُعِيَ أحدهم إلى تناول الطعام؟"

"لماذا يُدْعَى إلى تناول الطعام، إن لم يكن من أجلِ تبادلِ المنافعِ والمصالحِ الشخصية. ألم تتعلموا درسًا من حركة المكافحاتِ الخمسة والمفاسدِ الثلاثة؟ لقد تورط العديدُ من الأشخاص وجُرُّوا إلى الوحل بسبب الرأسماليين، وقد بدأ ذلك من دعوتِهم إلى تناولِ الطعام، ولعلَّ الأعمالَ المشبوهةَ لهؤلاء الأشخاص، قد تمت في الغرفِ الصغيرةِ في هذا المبنى".

"ماذا إن كانوا متزوجين؟"

"الزواج بالذات يقتضي عدمَ التبذير والإسراف، اشترِ بعضَ الحلوى، وأقمْ حفلة، نحن نفعل ذلك في إدارتنا".

انفجر يانغ تشونغ باو غاضبًا: "أيها المدير قاو، إنَّ حديثك كله يفتقرُ إلى الخبرة، الإدارة هي الإدارة، والمطعم هو المطعم. مَن فضلك انقلني إلى الإدارة لأعمل طباخًا، وأعدك بأنني لن أتفوه بأي تعليق!".

Twitter: @ketab_n

حينما رأيتُ نوبةَ الغضبِ تلك، ابتعلتُ ما كنتُ أود قوله. لا يمكنني أن أتشاجر مع عاملٍ شيخٍ خبرته في العمل تعادل عمري، وهو بروليتاليٌ أصيل، أمَّا أنا فكنتُ طالبًا، وبرجوازيًا صغيرًا، ومهما حاولت أن أثور فلن أستطيع، ولهذا اضطررت إلى الصبر في الوقت الحالي. كما أنَّ كلَّ اعتراضاتهم منطقية، ذلك لأنهم لم يكونوا مستعدين لهذه التغييرات. إنَّ "الملفوف مع شرائح اللحم الرفيعة" لا يحتاج مهارةٍ عالية، حتى أنا أستطيع إعداده.....نعم، إنهم لن يستطيعوا تطويرَ أساليبهم، وهذا أمرٌ مُؤسفٌ أيضًا. وعلى الرغم من أن طلبه العملَ طباخًا في الإدارة هو كلامٌ في لحظةِ غضب، فإنَّه كان من الأنسب له أن يعمل طباخًا في وزارةِ الاتصالات.....

سادَ الصمتُ القاعة.

حاولتُ ما أمكنني أن أفتح ذلك الطريق المسدود، إلاَّ أنَّ نظراتهم تركزت عليَّ. في ذلك الوقت كنت قد فهمت، أنه إذا لم تستطع خلقَ وضعٍ جديدٍ في مواجهةِ أمرٍ ما، فمن من الأفضل أن تحث الشبابَ وتضعهم في المقدمة. هم ليسوا متحفظين، ويملكون روحَ الإقدام، ويمكنهم أن يعبروا خط الحراسة، ثم يتراجعوا قليلاً مرة أخرى، إلى أن يتجاوزوا الحد في إصلاح الخطأ، لعلَّ هذا هو منطقهم.

"أيها الرفاق الشباب تحدثوا، أنتم مديرو المطعم كذلك، المستقبل لكم، تحدثوا".

اكتفى الموظفون الشباب بالابتسام، وهم ينظرون ناحية الأسطى وناحيتي، والجميع يشعر بالحرج، وظلُّوا مترددين بعض الوقت. وكان بينهم صبي صغير، يدعى باو كون نيان، كان نادلًا، وعلى الرغم من أنَّه لم ينهِ مدةَ تدريبه، فإنَّ حديثه كان منطقيًا وراقيًا:

"أيها الرفاق، يجب على مطعمنا أن يجري تجديدات، يجب أن نجري تجديداتٍ جذرية! ونتوقف عن خدمةِ هؤلاء المُسنِّين، ونلتفت إلى العمالِ

Twitter: @ketab_n

والفلاحين والجنود. وهذا ليس هراءً أو عبثًا، بل يجب أن نثبت ذلك عبر تغييرِ قائمةِ الطعام. ما هذه الوجبة، ومن أجل أي شخص تُعَدّ. فلحم السلطعون مع الكرنب لا يمكن للعمال والفلاحين والجنود تناوله فحسب، بل يجب علينا أن نعاني الأمرين مع هؤلاء السادة!؛ لماذا، لأنهم يتناولون قلبَ الكرنب، أمَّا ما يتبقى منه فيذهب إلى صحونِ العمالِ والفلاحين والجنود!، ومكعبات الدجاج المقلية يجب أن تُعَدّ من صدور الدجاج، أمَّا رؤوس الدجاج وأرجلها فتباع لسائقي العربات، هذا يعني بشكلٍ واضحٍ احتقارَ العمالِ والفلاحين والجنود. حينما يدخل أحدُ الفلاحين ويطلب شوربةَ توفو فقط، يرد عليه أحدُ الميسورين عابثًا: "هيه، اذهب إلى معبد (يوان مياو) وتناول الحساء، يكون الحساء هناك جيدًا ورخيصًا". وهناك لا يباع إلاّ التوفو فقط، ومن الجلي أنهم يعبثون معهم. أمَّا إذا جاء تشو زي تشي فإنَّ المكانَ يغلي كالبركان، ويكون الجميع منهكمًا ومشغولاً بدايةً من قاعة الطعام وصولًا إلى المطبخ. يجب أن يكون السمك طازجًا، والروبيان كبيرَ الحجم، ويجب أن يكون الخضارُ مقطعًا قطعًا صغيرةً بحجمِ الإصبع....."

وما إن بدأ باو كون نيان بهذا الشكل، حتى تبعه الآخرون وعبَّروا عن آرائهم، وكشفوا شيئًا فشيئًا عن الإسرافِ والتبذيرِ الذي ينغمس فيه مطعمنا، حتى إنَّهم احتقروا الولائمَ التي تقام والأعمال المشبوهة. ولم أكن أعلم شيئًا عن هذه الأوضاع، فتملكني الغضب عندما سمعت كلامهم، ودققت بإصبعي على الطاولة قائلاً: "أرأيت، أرأيتم، كيف سنتحمل ذلك إذا لم نقم بإصلاحات!"

أحنى الأسطى العجوز جانغ رأسه ولم ينطق بحرف، ولعلَّه كان السببَ وراءَ عزوفِ الكثيرين عن العمل بالزراعة. ولم ينطق أيضًا بعضُ الطباخين. كانت المقادير التي تُعَدُّ بها وجباتُ سوجو المشهورة دقيقة، وكان ثمة فائض منها دائمًا، حيث لا يمكنك خداع تشو زي تشي وأمثاله من الأشخاص،

Twitter: @ketab_n

يجب أن يهتم الطباخ بالزبائن، وبشهرتهم، وأذواقهم في الأكل. ومن الأفضل أن نقتبس مقولةَ كونفوشيوس: "إذا كنتَ ستأكلُ أرزًا فأخترْ أفضلَ الأنواع، وإذا كنتَ ستأكلَ لحمًا يجب أن يكون مطهوًا جيدًا".

وبهذا الشكل تحددت خطةُ التجديدات، وقد بذل باو كون نيان ما بوسعه، وكان سلوكه إيجابيًا فيما بعد، يذهب ويؤدي أيَّ عملٍ أكلفه به. وقد هيأتُ له الكثيرَ من الظروفِ لتساعده في أداءِ العمل. إلى أن قام بضربي حتى أوشكت على الموتِ في الثورةِ الثقافية. وتلك القصص، سوف أذكرها في حينها.....

في ذلك الوقت ركَّزتُ كلَّ طاقتي في سبيل التجديد والإصلاح، وكنتُ أعود إلى المنزل كلَّ يومٍ بعد الساعة الحاديةَ عشرَةَ مساءً. جددتُ قاعةَ الطعام، والبوابة، وعلَّقتُ ملصقات ضخمةً في الشوارع، وأرسلتُ إلى الصحيفةِ المحليةِ مقالاً بعنوان: "المطاعمُ الشهورةُ من أجل الشعب، الوجباتُ الشعبيةُ اقتصادية وعملية"!

كان المشهد مهيبًا في اليوم الأول الذي أُفتتح فيه المطعم. كان المُسنُّون من الرجال والنساء يأتون معًا بصحبةِ أحفادهم وحفيداتهم. أمَّا سائقو العربات، والحمَّالون، الذين يخرجون في مَهمَّاتِ عمل، فقد تجمعوا فجأةً في هذه اللحظة أمامَ بوابةِ المطعم. وكانت عرباتُ الركشا، والدراجاتُ الثلاثية، وعرباتُ الأحصنة تقف في صفٍّ طويل. وقد رأيتُ هذا المشهدَ الصاخب قبل التحرير، وساحبو العرباتِ الذين يأتون برفقةِ السادةِ والسيداتِ المُسنِّين، ينكمشون في البردِ القارس، بينما يصعد المُسنُّون إلى الفندقِ الفخم.. أمَّا الآن فقد نهض هؤلاء الذي كانوا يتكوَّرون في البرد، ودخلوا المطعمَ مرفوعي الرأس وبخطواتٍ واسعة، وملأوا قاعتي الطعام في الأعلى والأسفل اللتين تشبهان قاعاتِ الاجتماعات. وخلال لحظات ارتفع صريرُ المقاعدِ الخشبية، وكانت أصواتُ الناسِ المختلطةُ أشبه بمياهِ المد، وبدا الوضع فوضويًا بعض الشيء، إلاَّ أنَّه كان حماسيًا في الواقع!، وكان

Twitter: @ketab_n

النداء يقدمون الطعامَ بسرعةٍ بالغة، لأنَّ الأطعمةَ الشعبيةَ والحساءَ لا تتطلب تحضيرًا في وقتها، الحساء في برميل خشبي، والأطعمة في قدرٍ كبير، وكلٌّ يأخذ ملعقةً وصحنًا، من ملاعق وصحون تُقدم بلا انقطاع. أما العابرون أمام المطعم فكانوا يلزمون اليمين، بينما كان صفَّان من الناس ينتظرون دورهم في الدخول إلى المطعم، وإذا ما استخدمنا المَثَلَ القائلَ "بيته مثل سوق المدينة"، فسيكون مُعبِّرًا بشكلٍ ملائمٍ عمَّا يجري.

ولم أتوقع أن يأتي تشو زي تشي وأصدقاؤه الذوَّاقة، هذا رائع، أود أن أرى ماذا سيأكلون اليوم!، مَن كان يتوقع أنهم سيقفون أمام المدخل ويُلقون نظرةً على الإعلان، ثم يدخلون قاعةَ الطعام ويشاهدون الصخبَ والضوضاء، وينحنون بأجسامهم ليروا الوجبات، وأنوفهم تشمُّ الروائحَ شمةً تلو الأخرى، ليغادورا المكانَ بعدها وتعابيرُ اللامبالاة تعلو وجوههم، وهم يربتون على بعضهم البعض ويضحكون!، في تلك اللحظة امتلأ صدري بالسخط الشديد: "عارضوا ذلك، أيها السادة، إنَّ هدفَ قيامي بالتجديدات هو أن تعارضوها!"

وجاء رد المُسنِّين من الرجال والنساء مختلفًا: "آي، لقد سمعنا من قبل عن شهرةِ هذا المطعم، وكلما ازدادت شهرته ترددنا في المجيء، أمَّا اليوم فيبدو كأننا رأينا العالمَ كله!".

وقال أحدُ الفلاحين الذين يجلبون الخضار: "لقد جئتُ هذا المطعمَ عدة مرات في السابق، لكنني كنت آتي لتسليم الكرنبِ من الباب الخلفي، كنت أسلِّم الخضراوات إلى المطبخ مباشرة، ولا أجرؤ على مد رأسي وإلقاءِ نظرةٍ ناحية قاعة الطعام!"

يا لها من أوصافٍ برَّاقة، ويا لها من كلماتِ إعجاب، لقد جعلني ثناءُ الناس أنسى تعبي وإنهاكي، وأتأثرُ إلى حد الارتجاف. وكيفما سيكون تقييمُ التاريخ لعملي هذا (لا تقلقوا، فلا وقتَ لديه)، لكنني على يقين، بأنني

Twitter: @ketab_n

حينها لم أكن أنانيًا، وبأنني بذلت كلَّ جهدي من أجلِ مهنةٍ بسيطةٍ وعظيمةٍ كذلك!

في تلك اللحظة، جاء قائدنا إلى المكان، وكان راضيًا كلَّ الرضى، وعلى الرغم من أنَّ الوضعَ كان فوضويًا بعض الشيء، وهذا أيضًا أحد عيوب التقدم، فإنه أراد أن نرتقي بشكلٍ جيد، وندفع بهذا النظام إلى جميعِ المهن.

Twitter: @ketab_n

5 ـ النجاة من خطر

وبهذا الشكل سُدَّتْ السبلُ في وجه تشو زي تشي! وعلى الرغم من أنَّه كان من الصعب علينا الدفعُ بتجربتنا، فإنَّ الكثيرَ من المطاعم اشتغلت بلا اكتراث، ووضعت نوعين من الوجباتِ الشعبيةِ لتزيَّنَ بهما الواجهة. وبسبب هذه الظاهرة فقدت سوجو السمعةَ السائدةَ حول مذاقِ أطعمتِها؛ لأنها لم تعد تُطهى بشكلٍ متقنٍ كما كانت من قبل، وإن لم تتغير شهرتُها وأسعارُها. ومهما كان تشو زي تشي سكرانًا، إلَّا أنَّه يستطيعُ تمييزَ مذاقاتِ الطعامِ المختلفة! فما أن يتذوق الطعام، حتى يقطب حاجبيه، ويصرح برأيه. وقد أساء تشو زي تشي تقدير الروزنامة، ففي ذلك الوقت لم يعد أحد يدعوه المدير تشو، فالرأسمالي لم تعد كلمةً محببة. وحتى لو كنتَ تملك المال، فمن غير الممنوع أخذ الإكراميات، إذا أردت أن تأكل تفضل بالدخول، إذا لم يعجبك الطعام أخرجْ، لا توجد علاقة بين حجم الأعمال والمرتبات على أيِّ حال. ووفقًا لكلامِ تشو زي تشي، سينتهي مصيرُك بأن تلحق بكَ سمعةُ خدمةِ الرأسماليين!

كيف كان تشو زي تشي يتحمل ذلك، مع كلِّ وجبةٍ يتناولها كانت تغمره دفقةٌ من الحزن، ودفقةٌ من المرارة، وتؤلمه معدته بعضِ الوقت. وكان يشعرُ

Twitter: @ketab_n

كلَّ يومٍ بأنَّه لم يشبع، ولم يشرب كفايته، وعندما يرى الخمرَ والطعامَ يصيبه الغثيان، وأصبح خاملًا، غيرَ مبتهج، يقضي يومه بالكامل في الدوران جيئةً وذهابًا، وفي أغلب الأحيان كان يشتري بعضَ الكعكِ ويضعه في حقيبته، وأحسَّ أيضًا بأنَّ الكعكَ لم يعد كالسابق، كان يصيبه العفن عندما يضعه في الغرفة، وكانت والدتي ترميه في القمامة عندما تنظفها. وتَقَلَّصَ كرشُه الصغيرُ الظريفُ للغايةِ شيئًا فشيئًا.

وفي مساء أحد الأيام، دفع تشو زي تشي البابَ فجأةً ودخل، ووقف أمامي مُنتشيًا بالخمر: "قاو شياو تينغ، إنني.....أعارضك!"

لقد بدأت الهجماتُ المضادةُ لطبقةِ الرأسماليين، ولهذه النقطة كنتُ قد أعددتُ نفسي مسبقًا: "تفضل، أرحبُ بمعارضتك".

"لقد أحدثت فوضى عارمة في أطباق سوجو، أنتَ أنت، لقد خذلت سوجو!"

"هذا رأيك، فما تزال الأطباقُ كما هي، أمَّا ما يتعلق بالفوضى فهذا أمرٌ غيرُ وارد. نعم، لقد خذلت بيروقراطي ورأسمالي سوجو، ومنحت أهلها ضميرًا مستريحًا!"

"أنتَ أنت.....أنتَ خذلتني!"

"نعم، كان ينبغي عليَّ أن أخذلك، لأنكَ رأسمالي!"

"شياو تينغ، يجب عليك أن تكون طيبًا بعض الشيء، فأنا لم أعاملك معاملةً سيئةً خلال تلك السنوات!"

كان حديثه مفككًا مشوشًا، وأراد فجأة أن ينزع الجرحَ ويجعل منه ضمادة، وهذا أشعرني بالغضبِ الشديد: "أيها المدير تشو، لقد خذلتك، وخذلت أصدقاءك؛ يوجد من بين أصدقائه ثلاثةُ ملاكِ أراضٍ، وقد سجَّل اثنان اسميهما في سجلِّ معارضي حزبِ الكومنتانغ، ويوجد ثلاثةٌ يملكون

Twitter: @ketab_n

أسهمًا محددةً من الدولة لوقت محدد، بما فيهم أنت. ولا تعتقد أنكَ ستظل تملك تلك الأسهمَ إلى الأبد، سيأتي يومٌ تختفي فيه طبقةُ الرأسمالية هذه!"

أصاب تشو زي تشي الفزع لأننا سنغير سياساتنا مرة أخرى. وبالنسبة له كان الطعامُ مهمًا بالطبع، واختفاؤه مسألةَ حياة أو موت. وما إن أفاق بعض الشيء من سكره، حتى تراجع تلقائيًا، وأخرج سيجارةً من نوع (تشيان مين) وقدمها لي، فأوقفته بسيجارتي من نوع (في ما). حينها استغل الفرصةَ ووضع السيجارةَ بين شفتيه، ثم أخذ نفسًا: "اللعنة، لقد أرسلت أحدهم اليوم ليشتري لي (الدجاج المتسول) من تشانغ شو، ولم يكن مذاقه كالسابق، ولم أمنع نفسي من شربِ بضعِ كؤوس، ولهذا السبب انتهى بي المطاف هنا. آي، من أي باب دخلت!". أراد تشو زي تشي أن يندفع خارجًا.

"على مهلك!"

توقف تشو زي تشي.

"أيها المدير تشو، إذا كنتُ قد أخطأتُ في حقك، فهذا لأنني لم أخبرك أمرًا مهمًا: لا يمكنك أن تكمل بهذه الطريقة، يجب أن تتعلم شيئًا فشيئًا أن تكسب رزقَكَ بنفسك!"

"حسنًا حسنًا، سوف أتذكر ذلك".

منذ ذلك الحين، لم أعد أصادفه كثيرًا، وبالطبع لن يأتي إليَّ مرةً أخرى ويعبِّر عن معارضته. لكنني كنتُ قلقًا عليه للغاية، وكنتُ دائمًا أسأل والدتي عن أحواله. ولم تكن والدتي تعرف كذلك، ولم تكن تراه يعود إلى المنزل أغلب الأوقات، وكانت تفوح من غرفته رائحةُ عفن. وخطر ببالي، لعلَّ تشو زي تشي ذهب ليعملَ عملًا ما، فالطعامُ هو احتياجٌ ضروريٌّ دائمًا، ولا يمكن أن يكون مهنةً طوال الحياة.

Twitter: @ketab_n

وبعد فترة غير طويلة، قدم لي باو كون نيان تقريرًا ـ كان دائمًا يقدم لي تقريرًا.

مصيبة، لقد افتتح يانغ تشونغ باو مطعمًا سريًا، متخصصًا في خدمةِ الرأسماليين، ويجني ربحًا كبيرًا مساءَ كلِّ يوم!"

"أحقًّا ما تقول؟"

"نعم هذا صحيح، لقد رأيتهم بعينيّ، المكان هو المنزل رقم 54 شرق بيتك، يجتمع الكثيرُ من الرأسماليين كلَّ يومٍ هناك، ويُعِدُّ يانغ تشونغ باو الطعام، وتجمع النقودَ فتاةٌ مغناجة!"

كان باو شين نيان واثقًا بحديثه، فكيف يمكنني تجاهل الأمر؟ ذهبتُ على الفور إلى لجنةِ الحي لأحقِّقَ في الأمر، ثم عثرت على يانغ تشونغ باو وتحدثت معه، وبعد استجوابه استطعتُ اقتفاءَ أثر تشو زي تشي.

بعد أن خاب أملَه في المطعم، بدأ تشو زي تشي اعتزالَ الناس، مختبئًا في المنزل رقم 54 المبني على طرازِ مباني شانغهاي القديمة. الذي يضم في الحقيقةِ أربعةَ بيوت، من بينها بيتُ امرأة تُدعَى كونغ بي شيا. كانت سابقًا عشيقةَ سياسيٍّ كان يعملُ موظفًا حين تسنح له الفرصةُ أن يعمل موظفًا، وإذا لم يستطع يعملُ مدرسًا، وبهذا فهو حائزٌ على مرتبةِ مدرس. إنَّ الشخصيات التي تسكن حارات سوجو تنطوي على الكثيرِ من الحكاياتِ الغريبة. ويقال، إنَّ كونغ بي شيا كانت في شبابها جميلةً كحورية، وتتلمذت على أيدي أفضل الممثلين في (مطعم وان يوي لو)، كما أنها مَثَّلت ضيفةَ شرف في أوبرا (آلهة السماء تنثر الزهور)!، ولكن للأسف، بعد أن بلغت الحوريةُ الأربعين لم تعد تثير الإعجابَ في الناس، وعشيةَ التحرير، رحل عاشقُها دون أن يودع أحدًا ، وهرب إلى هونغ كونغ، وترك وراءه في سوجو كونغ بي شيا وابنةً عمرها ثلاث سنوات.

كانت كونغ بي شيا معتادةً على التزين منذ شبابها، ولعلَّها بسببِ علاقتِها بالمسرح، كانت شديدةَ الاهتمام بسلوكها، وحركاتها وغيرها من

Twitter: @ketab_n

الأمور التي تُظهر جمالَ جسمها. وعندما يبلغ اهتمامها حده، تصبح متصنعةً ومتكلفةً وتتلاعبُ بشعرها؛ خاصةً عندما لا يكون هناك داعٍ للقيام بأيِّ حركات لكنها تصر على القيام ببعضها، وكان هذا عجيبًا وغريبًا. إنَّ شتائم سوجو مؤذيةٌ للأذن، كان الناس يدعونها خفية: "خنفساء عجوز ضامرة".

ولم يكن تشو زي تشي يَقربُ النساءَ على الإطلاق، فلماذا أصبح فجأةً يرافق كونغ بي شيا؟ الإجابة بسيطة للغاية، ذلك، لأنَّها ماهرةٌ في الطهي!

وقد قضت كونغ بي شيا سنوات عملها الكثيرة في تحضير الحساء. وكان أصدقاءُ زوجِها جميعًا من الشخصيات المرموقة في السياسية، ومجالات الصناعة والتجارة والثقافة، ولا يمكن لشخص كتشو زي تشي أن يكون متبحرًا في العلم مثلهم. ماذا يعني أن يكون ذوَّاقة، ففي نظرهم، ما هو إلاَّ ثريٌّ أحمق، وشخصٌ أكولٌ لا يخجل من نفسه. فهل يذهب شخصٌ ذوَّاقة بحق إلى المطعم كلَّ يوم؟ وهل هناك مائدةٌ من مطعم (لاو جينغ شين) في المأدُبَة التي تُقام في (حديقة دا قوان)؟ وماذا يعني أن يلتهم أول قدر شعرية، فهل غُسلت قدورُ الليلة الماضية أم لا!، وهو يتذوقُ الشايَ بين زهورِ الحديقة، ويتكئُ على الحاجز ويشربُ الخمر. أمَّا ذهابُه فجأةً إلى الفندقِ الصاخبِ لتناولِ الوجباتِ الخفيفة، ولحمِ الخنزيرِ المطهوِ ببطء والملفوف بورقِ اللوتس، وشرائحِ التوفو المجففِ المرشوقةِ في أعوادِ القش، فهذا أمرٌ غيرُ مناسب!، أمَّا كبارُ الشخصيات، فلا يذهبون إلى المطعم إلَّا إذا كانوا مضطرين، وهم ينتقون بأعوادِ الأكلِ بعضَ الطعام، ويرون دائمًا أنَّ نكهةَ الطعامِ مُركزةٌ للغاية، ورديئة، ولا تنم عن ذوقٍ رفيع. وإذا لم تكن القدورُ، والملاعقُ، والمصافي نظيفة، فإنَّ المذاقَ الخالصَ سيختلطُ به مذاقٌ غريب، إلى جانب ذلك ثمة أمرٌ لا حلَّ له، رائحةُ الزيتِ المميزةِ التي يعبقُ بها المطعم! والطعامُ، اللذيذ الذي لا يفارقُ ذهنَ تشو زي تشي، بالنسبةِ لهم ما هو إلاَّ طعامٌ عادي. وقد بدأوا نظامًا جديدًا لمأكولاتِ سوجو، وكان هذا

Twitter: @ketab_n

النظامُ بلورةً لثقافةٍ ماديةٍ عاليةٍ ومحوًا للأميةِ الثقافية، وكان من شأنِ هذا النظامِ أن يستخدمَ شكلاً بسيطًا وهادئًا للغايةِ لإظهارِ محتوى مأكولاتِ سوجو المكررة، التي تكون مختلفةً عن العادة بعد عمليةِ الصقل تلك. ولهذا أصبح الطعامُ فنًا، وأخشى أن يكون اللقبُ بسببِ هذا النظامِ فقط.

وكان فنُ الطهي الذي أتقنته كونغ بي شيا مشهورًا بفضل تلك الحقائق. فقد كانت سيدةً ذاتَ صيتٍ واسعٍ في الدوائر الاجتماعية في السابق، وكانت تغني الأوبرا، وتطهو الطعام، كما كانت تجيدُ رسمَ لوحاتِ الزهور وغيرها. وطوال أكثر من عشرين عامًا كان يجتمعُ في باحةِ منزلها الكثيرُ من الشخصياتِ المشهورة، وكانت طاولتان من الماجيانغ تُسلِّيان ثمانيةَ رجال، أمَّا هي فكانت تستعرضُ مهارتَها في تحضيرِ وليمةٍ من الطعامِ والشراب. وكان في منزلها طاهيةٌ من الدرجة الأولى، تعملُ مساعدةً لها فقط!

وبعد أن سُدَّت الطُرقُ في وجهِ تشو زي تشي، كان يسمع بين حينٍ وآخر أحدَ أصدقائه يقول، إنَّه في المنزل رقم 54 سيدةٌ تُدعَى كونغ بي شيا، وكانت في السابقِ تفعلُ كذا وكذا، وكيف أنها كانت جريئةً ومثيرة.

وما إن سمع تشو زي تشي ذلك حتى ضحكَ قائلًا: "إنَّ صديقك يريد إشباعَ شهيتِه للطعام، فكيف يمكن للطعامِ الجيدِ أن يُطهى في المنزل. ليس لديك ما يكفي من التوابل، والحساء، وليس لديك موقدٌ كبيرٌ وطاساتٌ كبيرة، لن ينجحَ الأمر".

"ألا تصدقني؟، لا يوجد أمامنا حلٌّ إذَن، فأنا لا أستطيع أن أدعو تلك الرَيَّة. فهي لا تكترثُ بنا. وقبل التحرير فكَّرتُ بكلِّ الطُرقِ والوسائل، لكنني لم أفلح.....صحيح، لقد سمعتُ أنَّ أحوالَها المعيشيةَ ليست جيدة في السنواتِ الأخيرة، وأنها في ضائقةٍ ماديةٍ، فربما عندما ترى النقود، تُعِدُّ لنا مأدُبَة. كما أنَّ منزلكَ قريبٌ منها، اذهبْ وجَرِّبْ".

Twitter: @ketab_n

وقد كان تشو زي تشي كالغريقِ المتشبثِ بالأمواج، مما دفعه إلى القيامِ ببعضِ الأعمالِ الطائشة؛ فقد ذهبَ بتهورٍ وطرقَ بابَ المنزل رقم 54 مشيرًا إلى سببِ مجيئهِ مباشرة.

وإذا كنَّا قبلَ مرحلةِ التحرير، وإن لم تطرده كونغ بي شيا، سيكونُ الأمرُ عجيبًا!، ولكنها ليست كتشو زي تشي، تملك الكثيرَ من المالِ والأسهم، وقد أجَّرَت منزلَها لثلاثِ عائلات، وتعتمدُ كذلك على بيعِ أثاثِ منزلها وحُليِّها لتكسبَ قوتَ يومِها. وفي الوقتِ ذاتِه فهي لم تمارسْ هوايتَها منذ سنين، وجاشت في نفسِها الرغبةُ بقوة، وأردات بشدة أن تحظى من جديدٍ بإعجابِ الآخرين، وأن تستعيد أمجادَها السابقة. وقد حزمت أمرَها داخلها، لكنها كانت تحب أن تتصنع العظمةَ بعض الشيء:

يا سيد تشو، أين سمعت هذا الكلامَ الفارغ؟ نحن هنا لا نُعدُّ فقط أطباقًا مشهورة، بل وجباتٍ خفيفةً كذلك، كتسليةٍ حينما نكون ضَجرين.

كانت لهجتُها المحليةُ ذاتَ وقعٍ طيِّبٍ على الأذن كأغنية، المؤسفُ في الأمر أنها ليست مفهومةً لدى كتابتها.

وبالطبع، فَهِمَ تشو زي تشي، فاستجداها بقلةِ حياءٍ قائلاً: "حسنًا حسنًا، سنأكل أيَّ شيءٍ تعدينه أيًا كان، على أيِّ حال سيكونُ أفضلَ من أكلِ المطعم".

"المطعم!....."؛ مطَّت كونغ بي شيا نبرةَ صوتِها باستهجانٍ شديد: "أنتم الرجال حقًا خائبون عديمو الجدوى، بعد أن تشموا رائحةَ أكلِ المطعم تريدون فجأةً أن تأكلوا!"

أُصيبَ تشو زي تشي بالذهول، أيُّ رائحةِ مطعمٍ تتحدثين عنها؟ هناك روائح أطعمة زكية، ما أن إشمها حتى تفتح شهيتي! "آه، حسنًا حسنًا، نحن مجموعة من الأشخاص العاديين، أمضينا حياتنا نأكل ولا نفهم شيئًا، فلتكرمينا، وتمنحينا فرصةً للمتعة".

Twitter: @ketab_n

"حسنًا، إذا كنتَ مصرًا فسأفعل بذلك، كم عددكم؟"

عَدَّ تشو زي تشي في صمت، ثم جعل سبابته وإبهامه على شكل حلقة: "تسعةُ أشخاص".

"لا، أقصى عدد سبعة أشخاص، كلما زاد العدد لن يكون للأكل مذاق".

"حسنًا ثمانية، طاولة بالكامل".

ضحكت كونغ بي شيا وقالت: "أيها السيد تشو، أنتَ لا تفهم القواعد، المقعد المتبقي هو من أجل الشخص الذي يُعِدُّ الطعام".

"حسنًا حسنًا، أنا آسف". وافق تشو زي تشي، وقلبه ينطوي على شيءٍ من الشك، أيُّ طباخٍ يجلس على المائدة؟ يجب عليه أن يُذعن من أجلِ الطعام. بعد ذلك أخرج على الفور رزمةً أوراقٍ نقدية، ووضعها على الطاولة وكانت خمسين يوانًا، وقد خمَّن في سرِّه، أنَّ ورقةَ العشرة يوان بقشيش.

بدا عليها الضيق وقالت: "آه، ماذا تشتري هذه النقود؟"

حينها حزم تشو زي تشي أمره، وضحى بثمانين يوانًا، من أجل أن يشتري ماءَ وجهه.

ترددت كونغ بي شيا لبعض الوقت، كأنها كانت تحسب، وفي النهاية ألقت عليه نظرةً قائلة: "حسنًا إذَن، إن لم تكفِ النقود فسأشارك ببعضها. آي، إنك شخصٌ مسكينٌ في الحقيقة!"

وقُضي الأمر بهذا الشكل، وأمضت كونغ بي شيا خمسةَ أيامٍ لتُجهزِ الوليمة. وقيل إنَّها كانت ستُعِدُّ طاجنَ سمكِ الحنكليس بصلصة الصويا لكن الوقت لم يسعفها، لأنَّ سمكَ الحنكليس يجب أن يلقى عنايةً خاصةً لمدةِ أسبوع، وشهيةُ تشو زي تشي لن تتحمل الانتظارَ كلَّ هذه المدة.

وبالنسبةِ لما تناولوه في الوليمة، فلم أشاركهم، ولهذا لا يمكنني الكلامَ جزافًا.

Twitter: @ketab_n

وقد اشترك يانغ تشونغ باو فيها. كان ذلك اليوم يومَ إجازتِه عندما صادف تشو زي تشي في الشارع الرئيس. وكان تشو زي تشي ذاهبًا إلى أصدقائه ليعلمهم بموعدِ الوليمة، ولم يتوقع أن يكون أحدهم مريضًا، وكانوا بحاجة إلى شخصٍ ليحلَّ محلَّه. وحين صادف يانغ تشونغ باو قال: "تعالَ معي، سأصطحبك لتكتشفَ عالمًا جديدًا.. بعدها حدّثه عن كونغ بي شيا وكيف وجدها إلى آخره. وكان يُخالط حديثَه شيءٌ من التبجح والتباهي حتى يُنَفِّسَ عن تذمرِه من مطعمنا.

ولم يكن يانغ تشونغ باو مقتنعًا بأيِّ شخص على الإطلاق، فالطباخون المهرة دائمًا يكونون مغرورين قليلاً. وكان جميعُ الطباخين المهرةُ رجالًا، فكيف تكون هناك امرأة! لكنه سمع رئيسَه يقول من قبل، إنَّه في أواخرِ عهدِ أسرةِ تشينغ، كان في سوجو تقليدٌ لتقديمِ الطعامِ في المنازل، بدأ من أحدِ بيوتِ الدعارةِ الفخمة. وكانت المرأةُ التي تطبخ الطعامَ كلَّه ذكيةً وجميلة، حتى الفتيات الدميمات لم يكن مسموحًا لهن بمساعدتها، وكانت مهارتُها دقيقةً وممتازةً كالتطريز. وعلى كلٍّ حال كان يانغ تشونغ باو متفرغًا، ولم يطلب منه تشو زي تشي أن يدفع نقودًا، فلِمَ لا يرافقه ويرى حقيقة الأمر، وإذا كانت تملك مهارةً بالفعل يمكنه أن يستفيد منها؛ أمَّا إذا كان الأمر مبالغًا فيه فيمكنه أن يستهزئ بتشو زي تشي، ويحبط معنوياته!

وقد أخبرني يانغ تشونغ باو القصةَ من البدايةِ إلى النهاية، ليوضحَ أنَّه لم يفتحْ مطعمًا سريًا، وفي الوقتِ ذاته تملكه غضبٌ شديد بسببِ تلك المعلومةِ الباطلة التي شاعت عنه، وقال إنَّ هناك مَن يُضمر له السوء. وفي سَوْرةِ غضبه لم يتحدث عن كونغ بي شيا، بل كان حديثه يدور حولَ أمرِ نقلي له للعمل في وزارةِ الاتصالات. وقد أعدت تلك الوليمةَ بسرعة، ولهذا فإنني لا أدري ما أبدته كونغ بي شيا من مهارةٍ فائقة مساء ذلك اليوم، وكيف اهتمت بإعدادِ أصنافِ مأكولاتٍ شهيةٍ نادرة! ولا داعي لأن تشعروا بالأسف أيها القراء، ففي السنواتِ اللاحقة سيمكننا أن نرى أداءَها. يمكن

Twitter: @ketab_n

للثورة الثقافية أن تقضي على الكثير من الثقافات، أمَّا ثقافة الطعام فهي مُعلَّقةٌ بخيط.

حينها لم يكن أمامي إلاّ أن أخمِّن ما يجري عن طريقِ تصرفاته، فبالتأكيد كانت وليمةُ ذلك اليوم "أغنيةً كهذهِ مكانُها السماء، في حياتِنا تلك، كم مرةً ستحظَى بسماعِها!"(*)

وما إن تذوق تشو زي تشي الطعامَ حتى سحرَ لبَّه، ومن حينها لم نرَه إلَّا قليلًا. وأصبح لا يشبه ذبابةً بلا رأسٍ تدور في الشوارع هنا وهناك، ولم نعد نسمع صوتَ فتحِ الباب في الصباح الباكر وذهابه إلى (تشو هونغ شينغ)؛ وأصبح يعتزل الناس، ويتناول وجباته الثلاث في منزل كونغ بي شيا. أحدهم يجيدُ تناولَ الطعام، وأحدهم يجيدُ طبخه؛ أحدهم يعرف كيف يشتري، والآخرُ يملكُ المال. وتحول الوضع من الأكل معًا إلى العيش معًا، ومن العيش معًا إلى إعلان زواجهما، وكان الأمرُ منطقيًا سلسًا، وتكلل بالنجاح.

وأخيرا تزوج تشو تزي تشي، هذا الشخص الذي كان يملك الكثيرَ من البيوتِ في السابق، لم يؤسس عائلة إلاّ وعمره خمسةٌ وأربعون عامًا! إنَّ العائلة شيءٌ مدهش، يمكنها أن تجعل المرءَ رصينًا، وتضع له حدودًا في القول والفعل. وقد أصبح تشو زي تشي متزنًا بعض الشيء، منتبهًا إلى كلامه، ومعتنيًا بمظهره. وتغير أسلوبُ ارتدائه ملابسه عن السابق كثيرًا. فقد دس في بذلته الأنيقة، قلمين من الحبر الجاف، ممَّا أكسبه مظهرَ المثقف، وأخشى أنَّ كونغ بي شيا راغبةٌ بأن يكون مظهره على غرارِ زوجِها السابق.

ولا تجيد كونغ بي شيا طبخَ الطعام فحسب، بل هي ماهرةٌ كذلك في إدارةِ الشئون المنزلية. إذ رتبت منزلها وجهزته بعد زواجها بكلِّ طريقةٍ

(*) بيت للشاعر الصيني دوفو.

Twitter: @ketab_n

ممكنة، وجعلت تشو زي تشي ينتقل إليه، ودفعت العائلات الثلاث إلى ترك المنزل. وكانت مساحةُ الشقق التي شغلتها العائلات الثلاث كبيرةً للغاية، وهي لم تخسر بذلك أموالها. ذلك لأنَّ المنزل رقم 54 له فناءٌ على الطراز الصيني، تزينه أشجارٌ وبامبو، وبركةُ مياه وجسرٌ صغير، والمساحةُ شاسعة، والأسوارُ المحيطة بالمنزل عالية، وما إن يُغلق البابُ الكبيرُ تصبح كأنك تعيش في عالمٍ خاص، يتيح لهما تناولَ الطعامِ خفية بعيدًا عن الناس. في ذلك الوقت، كان هناك الكثيرون مثلي يعارضون الشراهة، ومنهم مَن يعارض التأنقَ في الملابس؛ فمَن يهتم بالطعام، أو مَن يتأنق في ملابسه، كان يتعرض لخطر اتهامه بأنه برجوازي، أو بأنَّ له علاقةً بالفكرِ البرجوازي. لذلك لم يكن أمام الأغنياء إلاّ التخفي عن الناس قليلاً، وتناولُ الطعامِ خلفَ أبوابٍ مغلقة، فمَن يمكنه رؤية الطعام وهو ينزل إلى مَعِدِهم!، وبالطبع، لا يستطيعون التخفي طوال الوقت، وكان الناس يرون تشو زي تشي وزوجته وهما ذاهبان إلى السوق في الصباح الباكر. كان الاثنان مُهندمِي الثياب، هي تحمل سلة، وهو يحمل شنطة، ويسيران وذراعُ كلٍّ منهما يلمسُ ذراعَ الآخر، ممَّا يستفز السائرين ويجعلهم يسخرون قائلين: "خنفساء عجوز ضامرة".

ولم تتحدث أمي في حقِّها بسوء، فهي ترى أنَّ هذه المرأة فعلت أمرًا حسنًا، جعلت مُبذرًا يعود إلى الطريقِ القويم. وكانت تقول لي دائمًا لدى عودتها من السوق: "لقد صادفتُ المديرَ تشو مرةً أخرى، لقد تغير حاله إلى الأفضل الآن، وكانا زوجين حميمين، وبدا وكأنهما يتدبران معيشتهما".

إلَّا أنني همْهَمْتُ، وأنا أفكر في سري: أهذا تغيرٌ إلى الأفضل؟ إنَّه يغلقُ بابَ منزلِه ويهربُ من الإصلاح!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

6 ـ البشر كلُّهم يحبون تذوق الطعام

لم يكن بإمكاني فعلُ شيءٍ إزاءَ هروبِ تشو زي تشي من الإصلاح. فقد توقف عن المجيء إلى مطعمنا لتناول الطعام، وليس بإمكاني أن أجمِّد حسابَه في البنك؛ وإذا قلتُ إنَّه يسلكُ سلوكَ البرجوازيين لن يكون ذا فائدة، فهو في الأصل برجوازي. ليأكل كما يحلو له، إنَّ الثورة لا تنجح من مرة واحدة، طالما أنَّه يتبع القوانين، ولا يقول إنَّ أطعمة سوجو ليست كالسابق، ولا يقتحم غرفتي ليبدي رأيه.

وبالطبع لا يمكنه أن يبدي رأيه، وفي الأحيان التي كنتُ أصادفُه فيها كان يمر بجانبي كأنني غريب، ولا يومئ برأسه لتحيتي، ويمضي ببطنه الذي انتفخ من جديد دون أن يلتفت ، كأنه ديكٌ منتصر، مما يجعلني أشعرُ بالحنقِ الشديد!

وما زاد غضبي هو أنَّ هناك بعض الأشخاص الذين أصبحوا فجأةً يرددون نغماته، ويقولون إنَّ مطعمنا لم يبقَ منه شيءٌ سوى اسمه، فنوعيةُ الطعامِ رديئة، وغيرُ متنوعة، والخدمةُ سيئةٌ للغاية! وتسعةٌ وتسعونَ في المائة من الأشخاص الذين قالوا هذا الكلام لم يكونوا من البرجوازيين. كان منهم موظفون، وعمال، ومُسنّون رجالٌ ونساء. ولم أقتنع حين سمعت

Twitter: @ketab_n

هذا الكلام، فلم يمضِ على الإصلاح سوى وقتٍ ينوف قليلاً عن العام، كيف يمكنكم أن تغيروا موقفكم من الثناءِ إلى المعارضة هكذا؟ إنَّ الشفاهَ تتقلبُ بسرعة! ولم يكن أمامي إلَّا أن أوضح الأمرَ بصبر:

"أيتها السيدة، لا تُطيلي الكلام، لقد كنتِ تأتين إلى هنا قبلَ عامٍ لتناولِ الطعام، ولقد شاهدتِ حياةً وعالمًا جديدين!"

" لقد شاهدتُ، نعم، حياةً وعالمًا جديدين من قبل، أود الآن أن أتناول طعامًا شهيًا". كانت السيدةُ تُلوِّحُ بأوراقٍ نقديةٍ كبيرة: "آه، لقد أرسل لي ابني هذه النقود، وطلب مني مرارًا وتكرارًا أن أعتني بنفسي وأتغذى جيدًا، وكنتُ سعيدة عندما جددتم مطعمكم. أيُّ تغييرٍ رديءٍ هذا، إذا أعددتُ الطعامَ بنفسي سيكون أفضل".

"حسنًا، لتعدي طعامك بنفسك، سيكون مذاقُه ألذ"؛ حينها خطرت ببالي كونغ بي شيا، وخرج الكلام من فمي بلا وعي.

اشتعلت السيدةُ غضبًا قائلة: "أنتَ..... إنَّ ما تقوله يشبه كلامَ اللصوص، إذا أعددتُ الطعامَ فماذا ستفعلون أنتم، ولماذا تقبضون مرتباتكم إذَن!"

حينها نهض باو كون نيان وتقدم قائلاً: "أيُّ لصوصٍ تتحدثين عنهم، انتبهي لكلامك!، هل أعمالُ الثورةِ الثقافيةِ هي أعمالُ لصوص؟ لقد دنستِ....."

حينها اعترضتُ طريقه بسرعة قائلًا: "حسنًا. تجاهلي الأمر. يا سيدتي، لا تغضبي، إذا لم تتحسن نوعيةُ الأكل، فسنردُ لكِ نقودك".

أما بالنسبة للموظفين لا أكون على هذا القدر من اللباقة: "أيها الرفيق، هل أنتَ في مَهمَّة عمل؟"

"نعم، لقد جئنا من بكين إلى سوجو، وسمعنا أنَّ مأكولات سوجو ذاتُ

Twitter: @ketab_n

صيت جيد، كما أنَّ مطعمكم له شهرة كبيرة، وجئنا خصيصًا لتذوق بعض المأكولات، ولكنكم تفعلون هذا الذي تفعلونه!"

"أيها الرفيق، إنَّ ما نقوم به أمرٌ جيد، كم تصرف على الطعامِ في اليوم؟"

"لا يمكننا أن نأخذ بدلَ طعام، لقد ولَّى العصر الذي كان النظامُ فيه أن يتقاضى العاملون بدلاً نقديًا لطعامهم، نحن قادرون على إنفاقِ النقود"

"يجب أن نتمسك بأسلوب الكفاح الشاق والحياة البسيطة".

"حسنًا حسنًا، نشكرك على توجيهك، إن كنتُ أعرفُ ذلك مسبقًا لجلبتُ معي كيسًا من خبز الذرة إلى سوجو، إنَّ مطعمكم هذا، وجوده بلا فائدة" وشوَّح بيده، ثم غادر.

تنهدتُ، وفكرتُ بأنَّ السلوكَ البرجوازي الذي يسلكه هذا الشخص خطرٌ جدًا كذلك، فلم يمضِ على قبضهِ مالهِ سوى بضعة أيام، ويريد أن يكون بيروقراطيًا بثرائه هذا!، أما بالنسبة لمطعمنا.....آه، إنه يواجه في الحقيقةِ بعضَ المشاكل. فخلال السنتين الماضيتين تقدمَ الاقتصادُ الوطنيُّ بشكلٍ كبير، وكان حصادُ الريف وفيرًا طوال السنتين، كما زادت أجورُ العمال، وحصل الموظفون على رواتبهم.....كما ارتفع سعر الرميمبي، وأصبح بإمكانك الحصول على رطل من اللحم بستة ماو، كما أنَّ الشاي ذا النكهات والبيض كانا بخمسة فِنّ، وزجاجةُ الخمرِ (خاي يانغ دا تشوي) التي كانت تُباع بماوين وخمسة فِنّ، أصحبت تباع بماوين وفِنين. وتحسنت أحوالُ الكثير من الناس، وحين كانوا يرون الأطعمةَ الشعبيةَ يهزون رؤوسهم، ويرون أنَّ كلَّ ما ينتمي إلى "الشعب" ليس جيدًا، وأنَّ "سجائرَ العمال" سجائرُ رديئة. لقد أردتُ أن أخدم العمالَ والشعب، لكنهم كانوا يعارضونني. وكان بعضُ الناس يبدون معارضتَهم ويضعونها على الطاولة، الكثيرُ منهم لا يريدون إرهاقَ ألسنتهم، وعلى كلٍّ حال فإنَّ المطاعمَ المشهورةَ

Twitter: @ketab_n

كثيرة، كما أنهم لم ينفذوا الإصلاحَ بشكلٍ جذري، مكتفين بوضعِ بعضِ المأكولاتِ الشعبيةِ في الواجهة. وعندما تغير الوضع أصبحوا لا يضعون شيئًا، وكانت واجهاتُ المطاعمِ تُبهجُ النظرَ بالكثير من المأكولاتِ المشهورةِ المتنوعة!، وهم ينتهزون فرصةَ ازدحامِ السوق ويحاولون قدرَ استطاعتهم سحبَ المالِ من جيوبِ الناس، يسحبون المالَ حتى يشعرَ الناسُ بالفرح والبهجة، وكانت الأرباحُ كبخارٍ حارٍّ يتصاعد، ويرتفعُ كترمومتر بالمقياس الأحمر إلى الأعلى!، لقد مررنا بعصرٍ ذهبيٍّ من قبل أيضًا!، أذكرُ في بدايةِ الإصلاح، أنَّ الأرباحَ زادت لفترة، ولهذا السبب بدأتُ في تدريس المحاسبة، وقلتُ إنها تشبه رجلًا يستبد به الخوفُ من سقوطِ السماءِ على الأرض. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى بدأت الأرباحُ في الانخفاض، انخفضت، انخفضت.....إلى أن انخفضت إلى الثلث، وإذا انخفضت مرةً أخرى سينتج عن ذلك في الحقيقة أزمةٌ تتمثلُ فيما إذا كنا قادرين على الاستمرارِ في العيشِ أم لا!

أيها الشَّرِهُون! عندما تصبحون فقراء ستتوقون إلى تحطيمِ المطاعمِ الراقية، وبعد أن تكسبوا بعض المال سرعان ما تزدحمون هنا، ويضايقكم أنَّكم لا تستطعون الدخول بسبب الزحام، وأنَّ المطعمَ ليس راقيًا. إذا افتتحت الآلهةُ تشانغ يي "مطعم قصر القمر"، فعلى الأرجح أنَّكم ستحاولون بكل الطرق الممكنة بناءَ سُلَّمٍ في السحاب!

كان ربيعُ عام 1957 فصلاً مضطربًا، وكان كلُّ الناس يبدون معارضتَهم، وسادت فوضى وبلبلة. وبدأ موظفو المطعم في تعليق ملصقات جدارية بحقي، جرائد مهملة خُطَّت عليها كلماتٌ سوداء، ترفرف مُعلَّقَةً في الممر. وعندما وقع نظري عليها أحسستُ بالاختناق، فلم تكن إلاّ تنديدًا بالطعام الذي يُقدَّم، وأرباح المطعم وغيرها من المشكلات. كان من بينها ملصق أثار غضبي بشكلٍ بالغ، يذكر أنني كنتُ مستغلاً سمعةَ المطعم، ومجهودَ العمال من أجلِ الحصولِ على الثروةِ والشهرة، كما يذكر أنني ضربتُ يانغ تشونغ

Twitter: @ketab_n

باو، وطردته!، وكان التوقيع باسم "أحد العمال"، لكن من الأسلوب والصفات الكثيرة التي يُظهرها الملصق، عرفت بكل تأكيد أنَّ مَن كتبه هو باو كون نيان. لم يكن ينبغي عليك أن تفعل ذلك أيها الفتى، لقد كنتَ متحمسًا ومتعاونًا في بدايةِ الإصلاح، وأنت مَن أبلغت عن خَبر افتتاح يانغ تشونغ باو لمطعمٍ سري، كيف يمكنك أن تقذف كومةَ براز فوق رأسي بهذا الشكل! بالطبع، لم يكن هناك داعٍ لتفسير ما حدث بشكل أدق، لطالما كان الأمرُ صحيحًا ولو بنسبةِ جزءٍ من الألف، فيجب عليَّ تقبله.

وفي اللحظةِ التي كنتُ فيها مرتبكًا، وأشعرُ بالضيق، جاء زميلي القديم دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير!

كان دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير يحضر اجتماعًا في بكين، ومرَّ على سوجو، ونزل من القطار خصيصًا لرؤيتي. ثماني سنواتٍ مرَّت في لمحِ البصر، لقد اشتقتُ إليكَ للغاية!، لم أتمالك نفسي وهتفت قائلاً: "أيها الرفيق القديم، أود دعوتك لتناولِ الطعام، هيا بنا، لنذهب إلى مطعمي!". بعدما قلت ذلك شَعُرتُ بالغرابةِ الشديدة، فليس من عادتي أن أقول هذا الكلام، كيف لي أن أرغب في دعوةِ شخصٍ لتناولِ الطعامِ فورَ مقابلته!

هز دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير رأسَه قائلاً: "لا داعي، لقد ذهبتُ إلى مطعمكم من قبل، كما أنني ألقيتُ نظرةً على تلك الملصقاتِ الجدارية. يا رفيقي القديم، أخبرني ماذا كنتَ تفعل طوال تلك السنوات؟"

"ماذا كنتُ أفعل؟ انتظر انتظر، انتظر. سأخبرك بكلِّ شيء بعد قليل". وبسرعة ناديتُ زوجتي العظيمةَ وقدمتها: "آه، هذه زوجتي. هذا دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير الذي كنتُ أحكي عنه دائمًا".

نهض دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير عن مقعده قليلاً وقال: "دينغ تشينغ، هذا اللقب.....آه، لا يجب أن تدعوني بهذه اللقب الآن، فأنا مثلك بالضبط، نحن الاثنين مديران".

Twitter: @ketab_n

كانت زوجتي مبتسمة، تحدق فيه، كأنها تريد أن تستشف ما إذا كان هذا الشخصُ يفوقُ الآخرين أم لا.

قلت: "لا تقفي ببلادة هكذا، اذهبي إلى سوق الخضار، واشتري بعض الطعام". وقد ذهب دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير إلى مطعمي بالفعل، وإذا ذهب معي سوف يثير ذلك جدلًا واسعًا. ولهذا خطر ببالي أن أدع زوجتي تُعِدُّ لنا شيئًا، ويمكننا قضاءُ الليلةِ في المنزل وتناولُ الطعام. ولم يخطر ببال أحد أنَّ زوجتي لا تجيد الطهي، فقد مضى على زواجنا أكثرُ من عامين لم تطبخ خلال هذه المدة أيَّ وجبة!، كانت تصب الشاي له فقط، وتقدم السجائر. ثم قالت: "حسنًا سأدعكما بعض الوقت، لقد ذهبت أمك إلى اجتماعِ لجنةِ الحي، عندما تعود ستُعِدُّ لكما الطعام".

عندما سمعتُ ذلك شعرتُ بالضيق، فاجتماعاتُ لجنةِ الحي تشبه ماراثونًا من الجدل، إذا انتظرت إلى أن يعودا سيكون سوق الخضار قد أغلق أبوابه. قلت: "لتعدي لنا وجبة، لا يمكنك الاعتماد على أمي في كل أمر".

ردت زوجتي قائلة: "ماذا، هل نسيت ما قلته من قبل، لقد قلت إنه إذا قضى الشبابُ وقتَ فراغهم في إعدادِ الطعام، فلن يكون ذلك فألًا حسنًا". ثم بسطت يديها وأردفت قائلة: "أترى، فأنا هذا الشخصُ المحظوظُ لا أدري أين زجاجةُ الزيت!"

انفجر دينغ ضاحكًا وقال: "نعم، يمكنني أن أؤكد لكِ أنَّه مَن قال هذا الكلام، يجب عليه أن يتحمل عواقب كلامه بالكامل!".

لوَّحتُ بيدي على الفور قائلًا: "حسنًا، اذهبي إلى الاجتماع، وأخبري أمي أنَّ ضيفًا بالمنزل، ودعيها تعود مبكرًا".

بعد خروج زوجتي، شرعتُ في قَصِّ مأساتي بلا توقف، من البدايةِ إلى النهاية: "..... لقد ألقيتَ نظرةً على تلك الملصقاتِ الجدارية، دع هذه

Twitter: @ketab_n

الإساءات جانبًا، لقد قام بها أحد الشباب الذين يثيرون الشغبَ مع الآخرين. ولكن ما العيبُ في الإصلاحِ الذي قمتُ به؟ لقد شاهدتَ بنفسك ما كان يجري في المجتمعِ القديم، لقد بدأنا النضالَ تحديدًا من أجلِ التخلصِ من هذه المظاهر. لا يمكنني نسيان أنني قطعتُ وعدًا لهذه المدينة قبيل رحيلي عنها. وبالطبع، إنَّ ذلك ما هو إلاَّ طموحاتٌ عالية، فقدرةُ الفردِ ضئيلةٌ للغاية، وفي مجالي الذي يمكنني أن أفعل به ما أشاء، لن أسمح لتلك القاذورات بأن تطفح من المجارير، ولن أسمح لهؤلاء الناس بالاستمرارِ في العيشِ داخل جنتهم تلك!، يمكنهم الهرب وغلق الأبواب على أنفسهم، لكنهم لن يستطيعوا تعليمَ رفاقنا أن يسلكوا مسلكَ البرجوازيةِ فيما يخصُّ تناولَ الطعام. في تلك الأيام الماضية تطلعنا إلى جنوبِ اليانغستي، من أجل دك العالم القديم؛ ومنذ فترة قصيرة فقط، شنَّت تلك الملصقاتُ الجداريةُ هجومها عليَّ!، اهجموا كما تريدون، فضميري مستريح!"

كان دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير صامتًا، يدخن السجائر، وبدا مضطربًا للغاية.

"قلْ شيئًا، تحدث، فأنتَ أكثر مني معرفة، وكنتَ تعمل طوال هذه السنين في مكتبةِ شينخوا، محاطًا بأكوام الكتب طوال اليوم، يمكنك أن تختار أيَّ كتابٍ وتدق به رأسي، ومن الأفضل أن يكون كتابًا مُغلَّفًا بغلافٍ ذهبي، اضرب به رأسي بكل قوة!"

ابتسم دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير قائلًا: "ليس هذا أمرًا جيدًا، لأنه سيكون من الصعب تنظيف مكان الرأس إذا آذيتك، أود فقط إطلاعك على ظاهرةٍ فسيولوجيةٍ عجيبة، حاسةُ التذوق لدى البرجوازيين في الواقع لا فرق بينها وبين حاسةِ التذوق لدى البروليتاريين!، الرأسمالي يرى أنَّ الروبيانَ المقلي أشهى من الملفوف بشرائح اللحم الرفيعة، وإذا تذوقه البروليتاريون سيرغبون في تناوله كذلك. وبعد أن يملكوا النقود، سيودون

Twitter: @ketab_n

تناولَ الروبيانِ المقلي، لكنك تصر على دس الملفوف بشرائح اللحم الرفيعة في أفواههم، لتحمدَ الزبائنَ على امتناعِهم عن ضربِك!"

وثبتُ قائلًا: "أنتَ أنت.....أنتَ لا يمكنك تناول الروبيان المقلي كلَّ يوم!"

"مَن لديه المقدرة على تناول الروبيان المقلي كلَّ يوم، مَن لديه هذا القَدر من النقود؟"

"يوجد الكثير، يا رفيقي، لا تقلل من شأن التيار السائد!"

"أنتَ مَن يستصغر جموعَ الناس. جموعُ الناسِ ضخمة، وإذا كان من بين مائةِ إنسانٍ شخصٌ واحد يمكنه تناول الروبيان المقلي، فبإمكانه كذلك تحطيمُ بابِ مطعمِك هذا!، وأنتَ تنادي دائمًا بتحريرِ الشعبِ الكادح، لكنني أظن أنَّ تحررَ هذا الشعب لا يتوافق مع رغبتك. فحينما يود شخصٌ ما تناولَ طبقٍ من الروبيان المقلي، لن يأكله بالمجان، ويريد مبتهجًا أن يزيد من ربحك، تكون أنت كالشوكةِ المغروزةِ في عينه".

"لا لا، أنا لا أعارض الشعب".

"أعلم، لكنك تعارض هذا الذي يُدعى تشو، لقد أغلق الرجلُ بابَ منزلِه على نفسِه، وتريد أنت القبضَ عليه أينما ذهبت".

"لا يبقى طوال الوقت في منزله".

"وبالطبع، سيكون هناك العديد من الناس الذين سيرغبون بأن يحذوا حذوَ الجموعِ الكادحةِ ويتناولوا الروبيان. دعني أخبرك شيئًا، إذا لم يوجد أثرياءٌ ورأسماليون في المستقبل، فيكون من بين زبائنك متشردون ولصوص، وقتلةٌ هاربون كذلك، أنْ تصدق أو لا تصدق؛ فهذا راجعٌ لك".

أصدق. لقد أدركتُ هذا الأمر مسبقًا، فعندما تنزل في فندق يجب عليك أن تقدم بطاقةَ العمل وخطابًا تعريفيًا، ولكن عند ذهابك إلى المطعم لا تحتاج سوى النقود. تنهدتُ مرغمًا: "آه، إنَّ كلامك منطقي، لكنني أظن

Twitter: @ketab_n

دائمًا أنَّ الحياةَ البسيطة والتدبيرَ والتوفير من فضائل أمتنا، ويجب أن نكون جادين بهذا الشكل فيما يخص أمرَ الطعام؟"

"كلامك صحيح، فهذا بالنسبة لك شخصيًا يُعَدُّ نوعًا من الفضائل، وتتمنى المحافظةَ عليها. لكنك مديرُ مطعم، ولا يجب عليك الخلطُ بين عملك وما تراه أنتَ مناسبًا أو غيرَ مناسب. إنَّ مأكولات سوجو ذاتُ شهرةٍ واسعة، وهي ثقافة أنتجها الشعبُ الكادحُ عبرَ آلافِ السنين، إذا ما اندثرت هذه الثقافةُ على يدك، فأنتَ مسئولٌ أمامَ التاريخِ عن ذلك!"

ما إن سمعت ذلك حتى فترت عزيمتي. لقد درستُ التاريخَ من قبل، وأعلم أنَّه لا يمكن العبث بهذا الموضوع، وإذا ما فعلتُ ذلك، لن أتمكن من الفرارِ حتى بالموت! لكنني ارتبتُ أيضًا في الأمر، كيف يمكن للشعبِ الكادحِ أن يبدع فنونَ الطهي تلك، إنَّ وقعَ هذه الجملةِ طيبٌ على الأذن فحسب، ومن الواضح أنَّ براءةَ الاختراعِ تلك تعود إلى تشو زي تشي وكونغ بي شيا.

وقد لُمْتُ أمي على ترحابِها البالغ، كان على المائدة خمسةُ أصنافٍ من الأطعمة، وكان الحساءُ مُعَدًّا من سمك الشبوط، وكان مذاقه شهيًا للغاية.

ولاحت ابتسامةٌ على وجهِ دينغ صاحبِ الرأس الكبير: "أترى، لقد أصاب المناخُ السائدُ في المجتمع منزلَك، حذار!"

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

7 ـ اليقطين وغيره

بعد رحيلِ دينغ صاحبِ الرأسِ الكبير، تأملتُ تصرفاتي بدقة. لماذا أردتُ شراءَ الطعام ما إن جاء صديقي القديم؟، الإجابةُ بسيطة، لأنَّ هذا نوعٌ من المتعة، ويدل على معاني الاحترام والكرم. لماذا لم أفعل ذلك من قبل؟ أذكرُ أننا عندما افترقنا في مدينةِ وو شين بعد عبورنا لنهرِ اليانغستي، دعوته لتناولِ الطعام، وأنفقتُ خمسة فين على كرياتِ اللحمِ بالعجين التي اشترتيها من إحدى العربات، أما هو فكان راضيًا وسعيدًا للغاية، وغمرتني مشاعرُ عميقة. لماذا لا أستطيع فعل ذلك الآن، وأنفق على الوجبةِ خمسةَ يوانات؟، الإجابةُ بسيطةٌ أيضًا، ذلك لأنَّ الخمسة فين في ذلك الوقت كانت تمثل عُشرَ مرتبيَ، أما مرتبي الآن فخمسةٌ وسبعونَ يوانًا، أضف إلى ذلك مرتبَ زوجتي، ثم اخصم من ذلك متطلباتِ المعيشة، فالخمسة يوانات تعادل الخمسة فين. بقدرِ عمقِ الصداقةِ يُضحي المرء، وإذا دعوتُ دينغ صاحبَ الرأسِ الكبيرِ اليوم لتناولِ كرياتِ اللحمِ بالعجين، وعلى الرغم من أنَّه لن يرفض، فمَا الداعي لجعلهِ يتذكر آلامَ الماضي؟، وإذا عرفت أمي وزوجتي، بالتأكيد ستمطرانني بالشتائم: "طوال هذه السنوات وأنت تذكر دينغ صاحبَ الرأسِ الكبيرِ، وعندما يأتي لزيارتِك تنفقُ خمسةَ يواناتٍ فقط، هل يمكنك أن تتصرف كإنسانٍ أم لا!"

Twitter: @ketab_n

بالطبع يمكنني أن أتصرف كإنسان، وأنا أعتقد أنني شخصٌ جيد، لا أنجرفُ مع التيار، ولا أغير رأيي كلما لاح لي جديد.....ولكن ألَم أشعر بأنَّ الوقتَ يمر، والحياةَ تتغير؟، جُل ما أعرفه هو أنَّ نسيانَ الماضي يعادلُ الخيانة، ولا أعلم إن كان نسيانُ التغييرِ يعادلُ الخيانةَ أم لا، أهو كمخالفتك لرغبةِ الشعب. لن أهتم بتشو زي تشي، لأدعَه يهنأ في باحةِ منزله الصغيرةِ بعض الوقت! وعندما أوشكت على تغيير موقفي، اندلعت الحملةُ ضد البرجوازيين اليمينيين [1]. ولم تمسني تلك الحملة، وكدت أتحول إلى بطل. فقد شَهد الجميعُ بموقفي الثابت، ووجهتي الصحيحة، وبمحاربتي شعارَ البرجوازيين "اليوم ليس أفضل من الماضي" بطرقٍ عمليةٍ منذُ زمنٍ طويل. لكن بسبب دوافعي الخفية، وترددي في الحديث، وعدم إيجابيةِ الإجراءات، أضعتُ فرصةَ ترقيتي، وأصبحت بلا فائدة كـ ليو آدو[2].

وخطر ببالي أنَّ تغييرَ موقفي جاء متأخرًا، ذلك لأنَّ القفزةَ العظيمةَ إلى الأمام اندلعت بعد الحملةِ مباشرة، وأعقب ذلك المجاعةُ الصينيةُ الكبرى[3]. في تلك السنوات لم يتمكن الناسُ من الحصولِ على الطعام، ومسَّهم الجوع، لم يكن ثمة طعام يمكنهم أكله؛ وحُددت حصصٌ معينةٌ من صلصةِ الصويا والزيتِ للناس، مَن لا يزال بوسعه الاعتراض على الأطعمةِ الشعبية؟، حتى حساء الخضراوات نفد، على الرغم من أنَّ ذلك الحساء كان يُضاف إليه كميةٌ قليلةٌ من الزيت، وكثيرٌ من الملح. وقد قضى الناسُ على كلِّ شيءٍ يمكن أكله، ولم يهتموا ما إذا كان طيبَ المذاقِ أم لا!

(1) الحملة ضد البرجوازيين اليمينيين: امتدت من عام 1957 إلى عام 1959.

(2) ليو آدو: اسم ملك جاهل عاجز في زمن الممالك المتحاربة (201 ـ 280م).

(3) المجاعة الصينية الكبري: والتي يشير إليها الحزب الشيوعي الصيني باسم ثلاث سنوات من الكوارث الطبيعية، وامتدت في الفترة من عام 1958 إلى عام 1961، وفقًا لإحصائيات الحكومة كان هناك 15 مليون حالة وفاة في تلك الفترة، ولكن قدّر الباحثون ضحايا المجاعة بعدد يتراوح بين 20 إلى 43 مليونًا.

Twitter: @ketab_n

وكان هذا الوضعُ سيئًا بالنسبةِ لتشو زي تشي!، فقد قضى أكثرَ من أربعين عامًا في تناولِ الطعام، لا ليملأ معدتَه، بل "لتناولِ شيءٍ شهي". وكان هذا الشيءُ الشهيُّ يُعَدُّ من أفضلِ المكونات. كان يأكلُ أفضلَ الخضراوات، ويأكلُ السمكةَ حتى ذيلها، ولا يأكلُ صفارَ البيض، ولا يتناولُ دهنَ اللحوم، كما أنه لا يستغني عن تناولِ الفطرِ ولحمِ الخنزير. وعندما اختفت هذه المأكولات، وكيفما كانت مهارةُ كونغ بي شيا في الطهي فإنَّها لم تستطع طبخَ شيء.

إنَّ الإنسانَ كائنٌ عجيبٌ حقًا، فعندما يتوفر الغذاءُ تكون حاسةُ تذوقه حساسةً بشكلٍ فريد، يمكنه التمييز بين ما إذا كان الطعامُ مالحًا، ملحه خفيف، مسكرًا، لاذعًا، أو إذا كان مطبوخًا في يومٍ سابق أو اهترأت مكوناته من طولِ مدةِ الطهي. وعندما لا يتوفر الغذاءُ يقفزُ الجوعُ إلى المرتبةِ الأولى، ويمكنه أن يملأ معدته بثلاثةِ صحونٍ من الأرز (لا داعي لذكر الأرز الأبيض)، حينها يكون سعيدًا وراضيًا إلى حدٍّ لا يُوصَف. وعلى الرغم من أنَّ تشو زي تشي ظلَّ طوالَ حياته يتناولُ الطعامَ الشهي، فإنَّه كان غيرَ قادرٍ على التحررِ من النظام. وقد أجبره الجوعُ على الخروجِ من باحتهِ الصغيرة، ليجولَ بحقيبتهِ القش في الشوارع طوال اليوم. هذه المرة لم يكن يبحث عن وجبةٍ شهيةٍ ليتناولها، بل كان يرى أيَّ مكانٍ يتجمعُ فيه الناس، ويحشر نفسه هناك بكل ما أوتي من قوة، محاولاً شراءَ القليلِ من البطاطا الحلوة، أو الجزر أو الفول السوداني وغيره، مهما كان سعره. ومع ذلك، كان دائمًا يعود بحقيبةٍ فارغة، وملامح بائسة، ويعبر مُنهكًا أمامَ منزلي. كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها غيرَ متعجرفٍ لامتلاكه المال، ولعلَّها كانت المرةَ الأولى الذي يدرك فيها أنَّ النقودَ ليست كلَّ شيء. كان تشو تزي تشي يتضورُ جوعًا، إلاَّ أنَّ المدينةَ مختلفةٌ عن الريف، فقد كان يحصل على كميةٍ مُخصصةٍ من التموين. وقبل القفزةِ العظيمةِ إلى

Twitter: @ketab_n

الأمام(*) كانت الكميةُ التي يحصلُ عليها تفيضُ عن حاجته، فغيَّر ذلك من سلوكه وشجَّعَه على التبرع، وعلى الرغم من أنه يتبرع باثنين جين الآن، فإنه لا يتضور جوعًا. الغريبُ في الأمر، أنَّه منذ أن حدث نقصٌ في الغذاءِ والزيت، أصبحت الحبوبُ الغذائيةُ كأنها مصنوعةٌ من القطن، يتناول تشو تزي تشي في الوجبةِ نصفَ جين، ولا أدري في أيِّ زاويةٍ أخرى سيضع المزيدَ من الطعام!، كما أنَّ ثمة خطبًا ما في تفكيره، فهو لا يشبع من وجبة ويبقى جائعًا بعد عشر، وما إن يفتح عينيه حتى يرغب في تناولِ الطعام. في السابق كان يحب تناولَ المكرونة حالما يستيقظ في النوم، أما الآن فما إن يفتح عينيه حتى يذهب ليلقي نظرةً على المائدة، ويشعر على الدوام بأنَّ الطعام في صحنِ ابنةِ كونغ بي شيا أكثر من الطعام في صحنه. حينها ترد كونغ بي شيا بخشونة: "إنَّ معدتَك بها عفريت!"

"هل معدتي أنا أم معدتُكِ أنتِ التي بها عفريت؟ معدةٌ فارغة، والأخرى ممتلئة!"

فتعطيه كونغ بي شيا طبقَ ابنتها قائلة: "خذ، خذ كلَّ شيء، فأنتَ لم تربِ الفتاة على أيِّ حال!"

انفجرت الطفلةُ في البكاء، واحتد الشجارُ بين الزوجين. وفي النهاية اتفقوا على تقسيم الطعام، موقد وقدران، كلٌّ يُعِدُّ طعامَه بمفرده. وتَفرقَ الذين كانوا يجتمعون معًا لتناولِ الطعام إلى فريقين في النهاية. فلم تعد تراهما وهما يسيران جنبًا إلى جنب، ولا تسمع كونغ بي شيا تنادي عليه بدلال: "يا تشو، تعال!"

إنَّ العلاقاتِ في الأسرِ البرجوازيةِ قائمةٌ في الأساسِ على المال، وإذا ما فقد جدواه، تسوءُ العلاقات تبعًا لذلك. لكنني كنتُ سعيدًا بما أصابه، لأنَّ

(*) القفزة العظيمة إلي الأمام: حملة اقتصادية واجتماعية قام بها الحزب الشيوعي الصيني، وانعكست في إصدار قرارات تخطيطية من عام 1958 إلى عام 1961، وكانت تهدف إلى استخدام عدد السكان الضخم لتطوير الدولة بشكل سريع من الاقتصاد الزراعي إلى مجتمع شيوعي حديث، من خلال عمليتي التصنيع والتنظيم الجماعي السريعين.

Twitter: @ketab_n

ذلك قد يدفعه إلى التخلي عن افتتانه بالمال، وأن يعلم أنَّ الحصولَ على الطعامِ ليس سهلاً كما يظن، وأن يتوقف عن البحثِ عن الطعامِ الشهيِّ بلا انقطاع.

ولكن هذا لا يعني أنني كنتُ فرحًا بما أصابه من مكروه، ذلك لأنَّ كلينا في الورطةِ نفسها، هو جائع وأنا أيضًا جائع، جائعان بحيث لا يمكننا التحمل. وكما يُقال، فأنا مديرُ مطعم، وباستطاعتي أن أجد حلًا ما لإسكاتِ جوعي، وفي تلك الأوقاتِ تحديدًا، تتعدى فعاليةُ السلطةِ المال. إلَّا أنني أعتقد اعتقادًا جازمًا بأنني شخصٌ طيب، وبأنَّ الجوعَ والموتَ مسائلُ صغيرة، أمَّا الخيانةُ فأمرٌ جَلَل، ولذا لم أسمحْ لنفسي بفعلِ تلك المؤامراتِ الماكرة. ولأكن صادقًا، أنا لم أصل إلى مرحلةِ الجوعِ التي لا تسمح لي بأن أتحرك. وفوق كلِّ ذلك كانت عائلتي صارمةً للغاية، كانت أمي وزوجتي تحاولان بكلِّ جهدِ الاعتناءَ بالأمور المهمة. كانت والدتي تقدمُ لي الطعامَ أولًا: "كُلْ بسرعة لتذهبَ إلى عملك، ليس لدي ما أفعله على أيِّ حال، وسآكلُ بعد قليل". كنتُ أعلمُ ما معنى "بعد قليل" تلك، كانت تعني دومًا إخفاءَها جزءًا من الطعام. كانت زوجتي تولي عنايةً كبيرة بابنتنا التي كانت في المرحلة الابتدائية وفي طور النمو، والتي ما إن تنتهي من مدرستها حتى تلقي بحقيبتها المدرسية، وتصرخ جائعة، ومهما قدمت لها من طعام، كانت تلتهمه التهامًا، كأطفالِ زمننا هذا، يزعجون الكبارَ عندما يودون تناولَ الطعام!، ولم تكن صحةُ زوجتي على ما يرام، فلم يمرَّ وقتٌ قصيرٌ حتى اكتشفنا أنَّ قدميها متورمتان، ووجهها منتفخ.

كان ذلك المرضُ منتشرًا حينها، وكان الجميع يذهبون إلى الطبيب، أما العلاج فكان بسيطًا للغاية: كارعٌ، ودجاجة، وتضيف مكعبين أو أربعة من السكر وتسلقه وتتناوله. من أين لك أن تجد كلَّ هذا!

Twitter: @ketab_n

كنت مُثقلاً بالهم بعض الشيء، وأسيرُ في الشارعِ منكسَ الرأس. وعندما مررتُ بمدخلِ منزلِ آه آر، كان يشيرُ بيدهِ إليَّ من الداخل.

كان آه آر قد ترك بالفعل حفرَ المجاري المائية منذ زمن. في تلك الأوقات عندما كانت تُطبَقُ سياسةُ تخفيفِ الأعمال، كان يحصلُ كلَّ يومٍ على ثلاثة جين من الأرز، كما أنه كان مجتهدًا في عمله، ولا يتذمر، وكان جديرًا بلقب العامل. وكان رئيسه يحترمه للغاية، ورتَّبَ له العملَ في محطةِ النقل، وهو الآن رئيسُ العمال. وكان يثق بي تمامًا، ويرى أنَّ كلَّ ما أقوله صحيح. وبالطبع، فإنَّ عربةَ الركشا تلك ضُمَّت للمتحف، ولم تعد العرباتُ ذاتُ العجلاتِ الثلاث تُشاهدُ كثيرًا، وعلى الرغم من أنَّه لم يعمل سائقًا، لكنه أصبحَ رئيسَ السائقين.

وعندما دخلتُ منزله، رأيت والدَه جالسًا بجانب البئر. ولم يكن هذا الشيخُ يعيرني اهتمامًا لعديدٍ من السنوات، بعدها عمل ابنه موظفًا، وأصبح له راتب، وتزوج، ووجد آه سان، وآه سي عملاً. ولم يعد الشيخ يبيع البصلَ والثوم، بل وضع طاولةً صغيرةً مكانَ البسطة، وشرعَ يشربُ الخمرَ كلَّ مساء، وكان يحييني مبتسمًا كلَّما رآني: "تعالْ تعالْ، اشربْ معي كأسًا!". ولم تكن الظروفُ طيبةً في تلك الأيام، لذا نقل الطاولةَ الصغيرةَ إلى جانبِ البئرِ مرةً أخرى. دعوته بعمي الشيخ، وودَّ أن يبتسم لكنه لم يفتحْ شفتيه.

سحبني آه آر جانبًا وقال: "أرى وجهَ خالتي ليس على ما يرام!"

"هذا صحيح، متورمٌ بعض الشيء".

"حسنا، لدينا عربتان تذهبان إلى جيجيانغ لجلبِ البامبو، لكنهم لم يجدوا بامبو هناك، بل عادت العربتان محمَّلتين بقرعٍ وجدوه في أحدِ الأودية الجبلية. جَهزْ عربةَ يد صغيرة، واذهبْ إلى رصيفِ الميناءِ ليلاً، وسأعبئُهَا لك".

"لا لا، أنا لستُ من إدارتِكم، كيف أحصل على جزءٍ من طعامِكم، بالإضافةِ إلى ذلك....."

Twitter: @ketab_n

"توقفْ عن الحديث، فأنا لن أقوم بتلك الأفعالِ الساذجة غيرِ المسئولة، لدي جزءٌ من ذلك القرع، لتأخذه أنت. لدينا دائمًا عرياتٌ في الخارج، وحركتُنا أنشطُ منك".

"إذَن....."

"إذَن ماذا، خذْ القرع!". تدخلَ الشيخُ قائلاً: "ما هو الغريبُ في القرع، مزارعُ شاسعة، وجرَّارات، لا أزال أنتظرُ شربَ تلك الفودكا التي حدثتَني عنها!". افترت شفتاه عن ابتسامة، كان يسخرُ مني.

ابتسمتُ كذلك قائلاً: "يا عمي، لا تسخر مني، أنا لم أنبشْ في ماضيك. فحين كان آه سان يحفرُ المجاري المائية، لم تكن حتى تلتفت إليَّ. ما الذي تغير بعد ذلك، أصبحت تدعوني لتناولِ كأسٍ كلَّ يوم. لا تقلق، فإنَّ ما يجري حاليًا أزمةٌ مؤقتة، وستأتي الأيامُ الجيدة!"

ضحك الشيخُ من قلبه، وأومأ برأسهِ مرةً تلو الأخرى قائلاً: "صحيح صحيح، أنا أثق بذلك، أثق بذلك".

كان هناك العديدُ من الآباء مثل والد آه آر، لهذا لم يفقد أحدُهم الثقةَ في الصينِ الجديدةِ أثناءَ التعرضِ للمحن، ذلك لأنَّهم عانوا في المجتمعِ القديم، وعاشوا من قبل في خمسينيات القرن، تلك السنواتِ التي سادَ فيها السلامُ والسعادة. كان يعلمون أنَّ الاستسلامَ طريقٌ مسدود، أمَّا التقدمُ فيحملُ أملًا على الدوام. ولهذا كانوا دائمًا قادرين على الصمودِ والصبرِ في وجهِ المحن التي كنا نواجهها والمحنِ القادمة كذلك، كانوا قادرين على الانتظار، واثقين بأنَّ تلك الأيام ستمر، مهما طال انتظارُهم. كنتُ أشعرُ بالندمِ الشديد، فإذا كان باستطاعتي أن أقدم لهم بضعةَ أطباقٍ أخرى من الروبيانِ المقلي في تلك الأيام، وتعميقُ ذكرياتهم الجميلة، لربما كانت ثقتهم ستكون أقوى بعضَ الشيء!.

عدتُ إلى المنزل وأخبرتُ أمي بالأمر، فغمرها الرضا الشديد، ومضت تركضُ في كلِّ مكان، لتستعيرَ عربةَ يد صغيرة.

Twitter: @ketab_n

استعرنا عربةَ اليد، إلَّا أنَّ تشو زي تشي هذا كان كالشبح يتبع عربةَ اليد إلى أن وصل منزلي!، كان مظهره شديدَ التحفظ، وبائسًا للغاية. رفض الجلوسَ بالرغم من إلحاحنا عليه، بل وقف ببلاهة في زاويةِ الباب. تعجبت في سري، ماذا يريد الآن، ألعلَّه مُعترضٌ على الطعام الشعبي!

كانت أمي تعاملُ تشو زي تشي باحترامٍ شديدٍ على الدوام، سحبته ليجلس، وصبَّت له كوبًا من الماء:

"أيها السيد تشو، تحدث بما شئت، هل تشاجرت مع كونغ بي شيا مرةً أخرى؟"

"من أين لي الطاقة لأتشاجر، انظروا، لقد نحفت!". تنهَّد تشو زي تشي، وربتّ بطنَه الذي كان منتفخًا في السابق، كان بطنُه مؤشرَ حياته.

نعم، لقد ضَمُرَ بطنُه الظريفُ المنتفخُ هذا، انكمش وجهه الأحمر، ونَحُفَ بشكلٍ يلفتُ النظر، وأصبح يشبه كيسًا فارغًا، جلدًا على عظم. قلتُ له: "تحمَّل يا سيد تشو، سيعلمك هذا درسًا!"

"آه.....أنتَ على صواب، أنتَ على صواب".

تردد تشو زي تشي، ونهض، ثم جلس مرةً أخرى.

كانت والدتي شخصًا عانى متاعبَ ومشقاتٍ طوالَ حياته، وقد استشفَّت من حالةِ تشي زي تشي أنَّه يريد المساعدة؛ لكنه يجد صعوبةً في طلبها. وقبل التحرير وعندما أجبرتها الظروف على الوصول إلى طريق مسدود، استدانت منه بعضَ النقود. وقد أخبرتني من قبل أنَّ أسوأ الأيامِ التي يمكن للمرء أن يعيشها هي الأيامُ التي يضطرُ فيها إلى اقتراضِ المال، وكانت تركضُ من بيتٍ إلى آخر في حيرة، وعندما لا يُفتحَ لها الباب تركضُ إلى آخر، وهي في حالٍ من الذلِّ والخضوعِ لا تعرف كم من الجولاتِ

Twitter: @ketab_n

ستدورُ بعد. ولعلَّها لم تود أن ترى الآخرين يعانون ممَّا عانت، ولهذا فقد شجعت تشو زي تشي قائلة:

"أيها السيد تشو، تحدث بما شئت، يمكننا أن نساعدك. لا يعيش الإنسانُ طوالَ حياتِه دون أن يشغله همٌّ ما!".

"القرع". قال تشو زي تشي دون أن يرفع رأسه: "سمعت أنكم ستذهبون لجلب القرع، هل يمكنكم أن تعطوني جزءًا، أنا.....سأدفع مقابله".

وعلى الرغم من أنَّ والدتي كانت تعلم أنه لم يأتِ لاقتراض المال، فإنها لم تتوقع مجيئه للسؤال عن القرع، وهي لا تستطيع أن تتخذ قرارًا فيما يخص هذا الأمر، ذلك لأنَّ القرع له علاقةٌ بمرضِ الاستسقاءِ الذي تعاني منه زوجتي، فإذا حدث لها مكروه لن يكون لنا عذر. وإذا لم تلبِ رغبةَ تشو زي تشي فلن تتمكن من تبرير الأمر، لأنها تعلم العديدَ من القصص حول السادةِ الذين ساعدهم خدمُهم، ولهذا رفعت رأسها ونظرت نحوي قائلة: "شياو تينغ، ماذا ترى!"

لم يعد ثمة مفر من التفكير في الموضوع، فقد كان مظهره البائس المسكين أمام عينيّ. ومن مظهره المختال وهو يصعد عربة آه أر، إلى دخولهِ متمايلًا إلى مقهى الشاي، وصولاً إلى مجيئهِ وطلبهِ بضعَ يقطيناتٍ وهو يرتجف خوفًا وإحراجًا، رأيت أنَّ عقابَ السماءِ كان كافيًا له!

أومأتُ برأسي: "حسنًا، سأعطيكَ جزءًا".

ضم تشو زي تشي يديه: "شكرًا لك، شكرًا لك، سأدفع النقود!". ثم أدخل يده في جيبه، لم ينسَ مطلقًا سحرَ المال.

وفجأة شعرت بالغضب فقلت له: "لا أريد نقودًا، يجب أن توافق على شرطٍ واحد!"

Twitter: @ketab_n

"أيُّ شرط؟". أصاب الذعر تشو زي تشي مرة أخرى.

"أن تذهب معي لسحب عربة اليد. إذا لم تعمل لن تأخذ الطعام، ولا يمكنك أن تطلب من أحدهم توصيلَ القرع إلى منزلك!".

"طبعًا طبعًا، سأعملُ بالتأكيد! ولكن.....ولكن أنا لا أجيدُ سحبَ العربات، وأخشى أن أُسقِطَها في النهر!".

حينما فكرتُ في الأمر، أدركتُ أنَّ هذه مشكلة بالفعل: "ستدفعها، سأسحبها أنا من الأمام، وتدفعها أنتَ من الخلف".

"سأدفعها إذَن، سأدفعها بكل قوتي".

"حسنًا، انتظرني في الساعة الرابعة فجرًا، بجانب دكانِ السجائر على رصيفِ الميناء، لن أنتظرك إذا تأخرت!". كنتُ صارمًا معه في تحديدِ الموعد، يجب على العاملِ أن يلتزم ببعضِ قوانين العمل دائمًا.

في الساعة الثالثة وخمسٍ وخمسين دقيقة من فجرِ اليوم التالي، خرجتُ من المنزل أجرُّ العربة، وكانت تُحدِثُ قرقعةً في الزقاقِ الضيقِ الساكن.

ولم أكن مخطئًا، فقد كان تشو زي تشي يقف هناك. وكنتُ في الأصل أود أن ينتظرني أسفلَ إفريز دكان السجائر، حتى يتجنبَ الندى البارد الذي يتساقطُ أواخر الخريف عند الفجر. لكنه كان ملتفًا بمعطفِ مطرٍ قديم، ويقف منتصبًا كعمود كهرباء أسفل مصباح الشارع لأتمكنَ من رؤيتهِ بوضوح. شعرتُ بالفرح عندما رأيته، فالعمل يمكنه تغيير المرء، على الأقل يعلمه أن يأتي في المكان والزمان المحددين.

"صباح الخير، يا سيد تشو، جعلتُكَ تنتظرُ طويلًا".

"لا تكترث، لقد دخنتُ خمسَ سجائر بالفعل!". كان يقول ذلك وهو يخلع معطفَ المطر، منحنيًا بجسمه ليدفعَ العربةَ معي.

Twitter: @ketab_n

قلتُ سريعًا: "البسه، العربةُ فارغة لا تحتاج إلى دفعها". كنت أتعمد تعليمه بعضَ مهاراتِ العمل، فدفعتُ العربةَ إلى الأمامِ قائلًا: "انظر، إذا كانت مقدمةُ العربةِ مرتفعةً وخلفيتُها منخفضة، والثقلُ مركزًا في الخلف، فإنَّ العربةَ تتحركُ بيُسرٍ إلى الأمام، ولن تبذلَ مجهودًا كبيرًا. انتظر حتى نملأها بالقرع، وسيتوجبُ عليك أن تدفعها أثناءَ الصعودِ والهبوطِ فقط. وعندما نسيرُ على أرضٍ منبسطة، ستمسكُ بجانبِ العربة بيدٍ واحدة، وتنحني بجسمك إلى الأمام، وتضغط بثقلك على هذا الجانب، ويمكنك الركض كذلك".

أخذ تشو زي تشي نفسًا، فدَفْعُ العربةِ لا يتطلبُ مجهودًا كبيرًا!، أمسك المعطفَ في راحةِ يدِه، ومضى يؤرجحه وهو يسير بجانبي. تطلع تشو زي تشي حوله، تغمره السعادةُ والنشاط، وبدا كأنها المرةُ الأولى التي يرى فيها سوجو قبل الفجر، المرةُ الأولى التي يرى فيها عمالَ النظافةِ وهم ينظفون الشارع تحت المصابيح، المرةُ الأولى التي يسمع فيها قرقعةَ عرباتِ السمادِ في الأزقة.

"أيها المدير قاو، كم الساعة الآن، لماذا أشعرُ أننا لا نزال في منتصفِ الليل."

"الساعة الرابعة وثلاث دقائق. ماذا، أليسَ لديك ساعة؟" كنتُ متعجبًا قليلًا، كيف له أن يحسب الوقتَ بتدخينِ خمسِ سجائر؟".

"في الحقيقة، لقد أهدتني عائلتي أثناء دراستي في الجامعة ساعةَ لونجين ذهبية، ارتديتها ثلاثةَ أيامٍ ثم خلعتها، حيث كنتُ أشعرُ بعدمِ الراحةِ دائمًا إذا ارتديتُ شيئًا في معصمي".

كدت أضحك، لعلَّه ابتلع تلك الساعة منذ زمن، حينها فقط شعر براحة شديد.

"إذَن لم تكن تذهب إلى محاضراتك في وقتِها، التأخرُ وضعٌ غيرُ مريحٍ كذلك".

Twitter: @ketab_n

"نعم كنتُ أتأخر، هاها، لم أكن أصل في الموعدِ على الإطلاق. وفي المعاهدِ الخاصة حيث درست، يمكنني دفع النقودِ للحصولِ على الشهادة. آه، وكما يقول المَثل لا يمكنك التعلُّمَ بعدَ فواتِ الأوان، وعندما أريدُ قراءةَ كتابٍ الآن، لا أفهمُ الكثيرَ من الكلمات!".

حينها نظرتُ إليه نظرةً مفعمةً بالاحترام، إذا لم يكن قادرًا على دفعِ عربةِ اليد فلا مشكلة، القراءةُ دائمًا أفضل، للقراءةِ منافعُها.

"أيَّ نوعٍ من الكتبِ كنتَ تقرأ؟"

"هيه، بالطبع كنتُ أقرأُ الكتبَ التي تتحدثُ عن الطعام، ووصفاتِ الطعام. في تلك الأيام لم يكن هناك ما يُؤكل، وكان يصيبني الأرقُ ليلاً، وكنت أتذكرُ كلَّ ما تناولته من أطعمةٍ لذيذةٍ في السابق، وبدا كأن تلك الأطباقَ الكبيرةَ والصحونَ الصغيرةَ العامرةً بمختلفِ الأطعمة تتراءى أمامي عيني. ولأكنْ صادقًا معك، ذاكرتي قويةٌ فيما يخص هذا الأمر، فأنا أذكر ما تناولته من أطعمةٍ مشهورةٍ منذ ما ينوف عن عشراتِ السنين، وأين تناولتُها، ومَن الطباخ الذي أعدَّها، وكيف كان طعمُها حين تناولتُها، والمذاق الذي تركته في فمي بعد ذلك.....لا تسخرْ مني، يجب أن تهتم بالمذاقِ الذي يتركه الطعامُ بعدَ تناوله، كيف تتذوقَ الزيتونَ الأخضر؟، ألاّ يكون حلوًا ولا مالحًا، ولا رخوًا، حتى يترك مذاقًا منعشًا في الفم بعدَ أكله.

إنَّ الإنسانَ أذكى المخلوقاتِ بالفعل، فهو يستطيع إعدادَ كلِّ هذه الأطعمةِ الشهية!، يأتي بها من السماءِ ومن أعماقِ الأرض، من الأنهارِ والبحار. وإن لم يكن الإنسانُ قادرًا على اغتنامِ جميعِ الفرصِ التي تعينه على تناولِ الطعام، ما كان له أن يعيش حتى اليوم!، إنَّ الديناصورَ لم يكن يتناول سوى الحشائش، فأين ذلك المخلوقُ الضخمُ الآن؟.....لا تتعجب. نعم، إنني أشعرُ بالأسفِ الشديد، تناولتُ هذه الأطعمة، ولم أكتب عنها شيئًا، وعندما أعودُ بذاكرتي إليها الآن لا أستطيع تذكّرَها بالكامل، ولهذا

Twitter: @ketab_n

أريدُ الاطلاعَ على وصفاتِ الأطعمة، ومراجعتها قليلًا، لأُسْكِتَ نَهمي كذلك!.....آي آي، خفف من سرعتك قليلاً، اسمعني، إنَّ قوائمَ الطعامِ تلك تجعلُ المرءَ يشعرُ بالغضب، وما هو مدونٌ فيها غيرُ دقيق، وأعتقدُ بأنَّه لا يوجد فيها أيُّ وجبة شهية، وتلك الوجباتُ التي تحطُّ من شأنِ أطعمة سوجو هي ما تثيرُ حنقَ المرءِ بشكلٍ خاص، كلُّها أطعمةٌ غريبة، ويقولون إنَّ من بينها ما تناوله الإمبراطورُ من قبل. ليكن، ماذا يعني ذلك، كان يُوضع أمامه مائةُ طبقٍ كلَّ يوم، ولم يكن يدري أيَّ طبقٍ سيتناولُ منها!، لماذا ذهبَ الإمبراطورُ تشيان لونغ في رحلةٍ إلى الجنوب، لقد جاءَ لتناولِ وجباتِ سوجو....."

لم أعد قادرًا على التحملِ أكثرَ من ذلك وقلت: "امشِ بسرعة، هيا لنأتي بالقرع!" وركزتُ بشكلٍ خاص على كلمةِ القرع، وكان غرضي أن أجعله يفيق قليلاً.

"نعم نعم، لا يجبُ نسيانُ القرعِ، يمكننا أن نُعدَّ منه الكثيرَ من الأطعمة الشهية. لقد كان مطعمكم يُعدُّ في السابق وجبةً مشهورة تُسمَّى كَوبَ البطيخِ المُجَوَّف، أو البطيخُ المُجَوَّفُ المحشو بالدجاج. تختارُ بطيخة تزن حوالي أربعة جين، وتقطَعُها من الأعلى، وتنزع قلبَها، وتُجَوِّفُها بمقدارِ نصفِ بوصة، وتزيِّنها من الخارج، وتكون جاهزة. ثم تأتي بدجاجة صغيرة، وتطهوها على البخار، ثم تضعها داخل البطيخة، وتغطيها، ثم تُدخلها سخانَ البامبو البخاري بعضِ الوقت، ثم تُؤكل. وأثناء تناولها يمكن أن تفرش ورقةَ نعناعٍ طازجة في قاعِ البطيخة، فتكون منعشة، وتُضفي مذاقًا ألذ" وبعد أن شرحَ وصفةَ الطعام هزَّ رأسَه قائلًا: "في الحقيقة إنَّ قشرةَ البطيخة مجردُ زينة، فالدجاجةُ لا تتشبعُ بمذاقِ البطيخ. البطيخةُ حلوة والدجاج مُتبَّل لا يتناسب الدجاجُ مع البطيخ، الألوانُ زاهيةٌ ومتناسقةٌ فحسب. يمكننا أن نُعدَّ القرعَ المُجَوَّفَ المحشو ونضع أرزَ النفائسِ الثماني الممتازَ داخلَ القرعِ ونطهوه على البخار، حيث يُطهى القرعُ ذو الرائحةُ

Twitter: @ketab_n

المنعشةُ مع الأرز، بالإضافةِ إلى أنَّ القرعَ له رائحةُ الحقلِ أزكى من البطيخ!....."

هذا يكفي. لقد استرسلَ في هذا الحديثِ المستفيضِ حول الطعام، وكنَّا على وشكِ الوصولِ إلى الرصيف. ولم أكن راغبًا في قطعِ حديثِه كذلك، وفقدتُ الأملَ في أن يتغيَّر، لقد كانت طباعُ هذا الشخص جامدة!، "سأدعكَ في تخيلاتِك لتهدئَ جوعك، أما أنا فسأغيِّرُ رأيي. كنتُ سأمنحه في البدء نصفَ حصتي من القرع، والآن: سأعطيه الثلث!".

Twitter: @ketab_n

8 ـ الطُرق تتلاقى

لم أكن أتوقع على الإطلاق، أن يسلك شخصٌ نَهِمٌ وآخرُ معارضٌ له المسارَ ذاته!، ففي أثناء الثورة الثقافية سلكتُ مسلكَ الرأسمالية، وتحوَّلَ تشو تزي تشي إلى مصَّاصِ دماء، وكلانا علَّق لافتة، ووقفنا أمامَ بوابةِ مجلسِ الحي لطلبِ العفوِ والسماح.

وكما قِيل عن تشو زي تشي إنَّه تحوَّلَ إلى مصَّاصِ دماء، وإنني سرتُ على مسارِ الرأسمالية.....كان ثمة أسبابٌ منطقية لهذا الكلام، فبعد أن مرَّت المجاعةُ الكبرى، شَعرت بأنَّ الفرصةَ مواتية، ويمكنني إعادة النظر فيما يخص التجديداتِ السابقة، وأن أتوقف عن دس الكرنبِ وشرائطِ اللحمِ الرفيعة في أفواهِ الناسِ بالقوة. بالإضافةِ إلى أنَّ الأوضاعَ في ذلك الوقتِ ومتطلباتِ الناس أجبرتني على التغيير. اقترحَ رئيسي افتتاحَ مطاعمَ راقية، وبيعَ وجبات بسعرٍ مرتفع، وذلك من أجل سحب العملة من التداول، ومطعمُنا في الأصلِ مطعمٌ مشهور، وبذلك الاقتراح أصبح الأمرُ واجبًا مفروضًا علينا لا يمكن التهرب منه. وقد هدَّنا الجوعُ في تلك السنواتِ الشاقة، حتى أنا الذي أدعي أنني شخصٌ غيرُ نَهِمٍ في العادة، رغبتُ كذلك في تناولِ طعامٍ شهي. كانت أمي وقتَ فراغِها تذهب للتزيُّض، حينها كان

Twitter: @ketab_n

جين فول الصويا يُباع بخمسة يوانات، والدجاجة بعشرة يوانات، فتهز أمي رأسَها متعجبة، لكنها مع ذلك تشتري دجاجةً وتعود بها، وتسلقها، وتضعها أمامَ زوجتي قائلة: "تناولي الطعامَ يا ابنتي، لقد عانيتِ طوالَ هذين العامين!" وعندما تقول أمي العجوز هذا الكلام تفيضُ عيناى بالدموع، وفي الحقيقة لقد شُفِيَت زوجتي من مرضِها منذ فترة. كانت ابنتي الصغيرةُ هي الوحيدةَ التي تشعرُ بالفرحِ الشديدِ، وتمضي في كلِّ مكانٍ هاتفة: "لقد تناولنا اليوم دجاجة!" كأنَّ أمرًا جللًا قد حدث!

وقد أغرت الوجباتُ مرتفعةُ السعر تشو زي تشي بالعودةِ إلى مطعمِنا من جديد، لكنه عاد مع كونغ بي شيا. وعلى الرغم من أنَّهما لم يعودا يسيران متلاصقين، فإنهما كانا يحملان حقيبةً كبيرةً مصنوعةً من القش، أحدهم يقبض على يد، والآخرُ يشد على الأخرى، وهما يبتسمان ويتصرفان بحميمية. كانت الحقيبةُ مملتئة بسكرٍ من الدرجةِ الأولى، وأفضلِ الفطائر، واشترى الزوجان منذ قليل كلَّ ما هو عالي الجودة، وكانا يسيران بوجهٍ مشرق مفعمٍ بالفرح، وتفوح منهما رائحةُ عطرٍ غالي الثمن. لقد فعلت النقودُ مفعولَها من جديد، وبالطبع فذلك الحب القديم يمكنه أن يمد جسورَه مجددًا. وقد اشترى تشو زي تشي وجبة كوارعِ الخنزير بالسكر، يبلغ ثمنها عشرين يوانًا، ووضعها في علبتي طعام. ومنذ أن ذهبنا معًا تلك المرة لجلبِ القرع، كنا نحيي بعضنا عندما نتقابل، ونتبادل بضعَ جُمل، ونتذكر تلك التجربةَ القصيرةَ التي خضناها معًا. وبعد أن مرت الأزمة، أصبح المطعمُ يقدمُ وجباتٍ جيدة، وشعرت حينها أنه اكتسبَ بعضَ الاحترامِ والتألق. وحينما كنتُ أراه يشتري وجبة كوارع الخنزير بالسكر أشاكسه قائلاً: "حسنًا حسنًا، لقد عاد زبوننا القديم!"

سُرَّ تشو زي تشي كذلك، وابتسم، ثم أمسك يدي، ولكن كلامه لم يكن لطيفًا: "لم يكن أمامي خيار آخر، فكوارع الخنزير بالسكر لا تُباع في الأسواق، فاضطررتُ للمجيء إلى مطعمكم لشراءِ المنتجاتِ الغالية!".

Twitter: @ketab_n

"أوه.....لماذا لا تأخذ وجبةً ساخنةً إذَن من أجل ابنتك؟"

"لا لا، الكوارع لا تُطهى جيدًا في مطعمكم، وليست لذيذة. سنطهوها في المنزل مرةً أخرى، ونضيف نصفَ جين من الخضراوات الخضراء، ونضع اللحمَ الوردي مع الخضراوات في الصحن الأبيض، حينها نكون قد أعددنا وجبةً ذاتَ نكهةٍ لذيذة. أمَّا وجباتُكم، فهي بعيدةٌ كلَّ البعدِ عن ذلك!"

شعرتُ بحزنٍ من كلامه، لم يكن ينبغي أن أعطيه ثلثَ القرعِ حينها. لكنني تعلمتُ الدرسَ كذلك، لا يجب أن تصب جامَ غضبك على أحد. وكانت أحوالُ التموين في عامي 1963 و 1964 قريبةً من الأحوال أيامَ القفزةِ الكبرى إلى الأمام، ونويتُ أن أكرّس جهدي في تقديم الروبيانِ المقلي، حتى تترسَّخَ ذكرياتُ تلك الأيامِ الجميلةِ داخلَ الناس، لا يمكن للمرءِ أن يشعر بالأسفِ والندم دائمًا. لكن تلك التجديدات ستكونُ أصعبَ من التي أنجزتُها سابقًا، فمن التزمتِ إلى التساهل، من الصرامةِ إلى عدمِ الاكتراث، من التوترِ إلى الكسل، من التواضعِ والتروي إلى عدمِ المبالاةِ تمامًا، كلُّ ذلك كان سهلًا للغاية، لكن من أجل أن تسقط ينبغي عليك القيام بجهدٍ قليل!

توقف باو كون نيان عن العمل نادلاً منذ فترةٍ طويلة، وحدث هذا التغير تحت إشرافي. وعلى الرغم من أنَّ وظيفته الإدارية كانت عاملاً (وكان معترضًا على ذلك)، لكنه عندما يعمل يكون كرئيسِ اجتماع، يجلسُ كأنه يلقي محاضرةً في قاعةِ الطعام التي تشبه قاعةَ الاجتماعات. وعندما يتزاحم الزبائنُ يهتفُ بصوتٍ مرتفع: "هيه هيه، لا تجلسوا هكذا، اجلسوا إلى الطاولاتِ الأماميةِ أولًا!، هل سمعتم أم لا، أنت، لماذا تجلس بمفردك بجانبِ النافذة؟"

"من فضلك أيها الرفيق".

Twitter: @ketab_n

"هل تريد طعامًا؟ انظر إلى السبورةِ السوداء، كلُّ الوجباتِ مُدوَّنةٌ عليها".

"أيها الرفيق، أريد وجبتين من وجباتِ سوجو المشهورة".

"وجباتٌ مشهورة؟ كلُّ وجبةٍ لها اسم، مُدوَّنٌ بوضوح".

وكلُّ يومٍ تقريبًا كان يأتي أحدُ الزبائن ليعرضَ شكواه: "لقد جئنا هنا لتناولِ الطعام، لا لنُذَل!"

حينها أسارعُ بالاعتذارِ للزبون، وأستغلُّ الوقتَ في عقدِ اجتماع، للتوعيةِ الفكرية، ووضعِ خطةٍ للخدمة، وتوجيهِ النقدِ للآخرين، والنقدِ الذاتي. ويجب أن أوجه الشكرَ إلى فنان سوجو الهزلي جانغ يو آر ـ ليرقد بسلام. لقد ألَّفَ حينَها مسرحيةً هزلية، بعنوان "هل أنتَ راضٍ أم لا". وقد أعانتني على أداءِ عملي بشكلٍ كبير، وقد طلبتُ منه كتابةَ تقريرٍ حول المطعم، وكان لتقريرهِ تأثيرٌ كبير، ولهذا دعوتَه لتناولِ الطعام، ولم يدفع الثمن، كونه من تكاليفِ الدعاية.

وباندلاعِ الثورةِ الثقافية، تحوَّلَ كلُّ ما سبق بالطبعِ إلى إثم، وقيل إنني أعيدُ النظامَ الرأسماليَّ بالكامل، وأجبرُ الجموعَ بقسوةٍ وانعدامِ شفقةٍ على خدمةِ أسيادِ المدينة!، وقالوا إنَّ الوجبةَ التي تناولها جانغ يو آر لم تكن شهية، وتعرضتُ للهجومِ طوالَ اليوم!

أصبح باو كون نيان مديرًا، وبدأ تمرده وعصيانه. في تلك الأيام كان لديه نوعٌ من الحدسِ الخطأ: فقد كان يعتقد أنَّ الذي يُطيحُ بالوزيرِ يكون وزيرًا، والذي يُطيحُ بالمديرِ يكون مديرًا. أمَّا منصبُ الوزيرِ فقد شُغِلَ بالفعلِ بعد تصارعِ الناس، ولهذا اضطرَ إلى التكرمِ بقَبولِ هذا المنصب. وفي الواقع لقد هيأ جميعَ الظروفِ للتمردِ عليّ: السجلِ التاريخي النظيف، حمايةِ خطِ الثورةِ منذ بدايتها، والأمرُ الأكثرُ غرابةً هو مقاومةُ سلوكياتِ إعادةِ النظامِ الرأسماليِّ الكبيرِ التي أنجزتُها عام 1963، وبهذا

Twitter: @ketab_n

وجَّه لي ضربةً قاتلة!، ولم يكن كلُّ ما قاله محضَ افتراء، فقد انتقدته عام 1963 وحينما كنا نكتبُ قوائمَ الطعام كان يُحرِّفُ أسماءَ الوجبات بشكلٍ فكاهي، وثمة صحيفة استخدمت هذه الأسماءَ الساخرةَ في مقال، وعلى الرغم من أنَّه لم يُذكَر الاسم، لكن كان هناك دائمًا القليلُ من الضغط. ولهذا عندما كان يوجِّه لي الاتهامات كان دائمًا معبأً بالنقمة والسخط، تترقرقُ الدموعُ في عينيه: "في ذلك الوقت حينما غطَّت السحبُ السوداءُ المدينة، كنتُ ضعيفًا، وناضلتُ بمفردي، واضطررتُ مؤقتًا أن أخضع لطغيانه، إنني أترقب، أترقب....." كان باو كون نيان يقرأ الروايات دائمًا في المطعم، ولم تكن روايات قصيرة، ولم تكن تافهةً كذلك، وكان على دراية كاملة بأحوالي، وكانت جميعُ القنابل في يديه. وفي الواقع لقد تغيَّر مسارُه مثلي، واعتبرته يدي اليمنى، ولهذا لم يكن هناك أمرٌ لم أطلعه عليه كمساعدتي لتشو زي تشو في الماضي بشراء الوجبات الخفيفة، أو سكني في منزله بدون دفع الإيجار.. إلخ من هذه الأمور. كان بعضُ ما حكيته من أجلِ بيانِ الظلمِ الذي كان سائدًا في المجتمعِ القديم، والبعضُ الآخر لمجردِ الدردشةِ لا أكثر. وقد ربط باو كون نيان هذه الأمور، وانتقدني قائلاً:

"هذا المكابرُ السائرُ على خطى الرأسمالية، لقد كان يتعرض للرشوة من قِبل أحدِ الرأسماليين مُذ كان صغيرًا، وعندما رأى أنَّ نهايةَ نظام تشيانغ كاي شيك اقتربت، حملَ هدفه الخفي وجاء إلى منطقةِ التحرير. في بدايةِ فترةِ التحرير تظاهرَ بالنشاطِ والإيجابية واستولى على السلطة، وما إن أتيحت له الفرصةُ حتى أعاد بالكامل نظامَ الرأسمالية، وكلُّ ذلك من أجلِ خدمة سيده!". وعلى الرغم من أنَّ هذا الكلام لا يطابقُ الواقع، فإنه منطقيٌّ للغاية. لقد جئتُ إلى منطقةِ التحرير بعد سقوطِ نظامِ تشيانغ كاي شيك، وكنتُ نشطًا ومجتهدًا في بدايةِ التحرير، وعندما أصبحتُ مديرًا كانت لدي بعضُ السلطة، ومع أولِّ فرصةٍ مواتيةٍ قمتُ بتحسينِ نظامِ العملِ والإدارة!، في أيِّ مسألة، طالما استطعتَ أن تتبيَّن طبيعتَها، فكلُّ ما تقوله

Twitter: @ketab_n

يكون منطقيًا، ولا يحتاج إلى علمٍ ومعرفة. وحسب الفلسفةِ الصينيةِ القائلة "عندما لا يكون الحصانُ الأبيضُ حصانًا"، فإنَّه إذا تأكدتَ من أنكَ حصانٌ أولًا، وسواء أكنتَ حصانًا أبيضَ أم أسود، فلا تظن أنكَ مهما تغيرت يمكنكَ الإفلاتُ بسهولة!، وإلَّا، فلماذا الخلطُ بين الأسودِ والأبيضِ في ذلك العالم بهذا القَدْرِ من السهولة؟.

وكان هناك بعضُ الأشخاصِ الذين يسألون بدافعِ الفضول: "هذا صحيح، أيُّ مالكِ عقاراتٍ رأسمالي لا يأخذ الإيجار؟ وهو لم يسكنْ يومًا أو يومين، بل عشراتِ السنين، أيُّ علاقة بينهما بالضبط؟"، هؤلاء الأشخاص لا يضمرون نيةً سيئة، بل يودن معرفةَ العلاقةِ السرِّيةِ بيننا فحسب.

إلاَّ أنَّ باو كون نيان أراد الكشفَ عن هذه العلاقة وكتابةَ تقرير، ونقلهِ على الفور عبرَ لجنةِ الحي إلى أماكن أخرى.

أما تشو زي تشي هذا، فلم يقل شيئًا. وبجانبِ الطعامِ الشهي كانت لديه نقطةُ ضعفٍ قاتلة ـ الخوف من الضرب. فما إن شمَّر باو كون نيان عن ساعديه، وضرب بقبضتهِ على الطاولة، حتى تخبط في حديثه، وارتعش جسمه.

"تحدث، هل رشوت قاو شياو تينغ من قبل؟"

"رشوته.....نعم رشوته من قبل".

"كيف؟"

"كنتُ أعطيه النقود دائمًا."

"أين؟"

"في الفندق."

"كم مجموع ما أعطيته؟"

Twitter: @ketab_n

"حوالي.....حوالي مئاتِ الآلاف".

"آه! كيف سحبت كلَّ هذه النقودِ من البنك؟".

"لم يكن، لم يكن هناك داعٍ لسحبها، فقد كانت فُراطة، نعم نعم، كانت عملاتٍ زائفة".

ولحسن الحظ كان باو كون نيان يفهم أكثرَ من جدتي، فإذا كان جُلُّ ما يعلمه هو العملاتُ النحاسية والفضية، فلعلَّ الأمرَ كان سينقلب إلى مزحة.

"عملاتٌ زائفة؟.....النقودُ الزائفةُ نقودٌ أيضًا!، قلْ بسرعة، كيف كانت المعاملاتُ تتم بينكما بعد التحرير؟"

"لم تكن بيننا معاملاتٌ فلم يكن يعاملني بشكلٍ مهذبٍ بعد التحرير".

"هراء، خذه من هنا!"

"آه آه، عليَّ اللعنة، لقد نسيت، لقد أعطاني قرعًا حينما كنَّا نمرُّ بالمجاعةِ الكبرى!"، عليك اللعنة يا تشو زي تشي، لقد نسي أن يقول إنني منحته الثلث، ومن أجل ذلك الرقم، تلقيتُ بضعَ لكمات!

كانت هذه المرة خطرة، فقد كان الدليلُ قاطعًا، والتُّهمُ لا تُعد ولا تُحصى!، وما تبع ذلك كان خطرًا بدرجةٍ أكبر، فقد أتى بكونغ بي شيا بعد بحثهِ هنا وهناك. وكان زوجها السابق قد هرب عشيةَ التحرير إلى هونغ كونغ، وأثناء المجاعةِ الكبرى أرسل لها علبةَ طعامٍ محفوظ، وكانت التعليماتُ السريَّة مخبأةً داخلَ العلبة!، فقد كانت جاسوسة، وكنتُ أنا متواطئًا مع جاسوسة، وأختلسُ أسرارِ الدولة.....لقد قرأ باو كون نيان الكثيرَ من روايات الجاسوسية، ويمكنه أن يكتب روايةً من كثرةِ ما قرأ. انظر: في الساعةِ الثالثةِ وخمسٍ وخمسين دقيقة قبل طلوع الفجر، كان تشو زي تشي يرتدي معطفَ مطرٍ أمريكي الصنع (كان ذلك المعطفُ المهلهلُ بضاعةً أمريكيةً بالفعل)، ويضع كابًا بشكلٍ مائل (لم يكن يرتدي كابًا)،

Twitter: @ketab_n

ويسيرُ جيئةً وذهابًا تحت عمود النور، وهو لا يتوقف عن تدخينِ السجائر. وفي تمامِ الساعةِ الرابعة، جاء قاو شياو تينغ ساحبًا عربةَ اليد من الزقاق، ونظرَ يمينًا ويسارًا، ثم همس قائلًا: "تحركْ....." كانت بدايةُ القصة جذابةً للغاية، لذلك لاقت إقبالاً، وكان يندد بها أينما ذهب. وكان لا يتوقف عن الحديث، أما أنا فقد أنحني واقفًا هناك، وأجيبُ بين حينٍ وآخر عن السؤال:

"هل أنتَ مذنبٌ أم لا؟"

"مذنب، أنا مذنب!". وفي الحقيقة لقد اعترفت أنني مذنب. وحينما علم باو كون نيان في تلك السنة أنَّ يانغ تشونغ باو ذهب إلى منزل كونغ بي شيا لتناول الطعام، لفَّق قصةَ المطعم السري، وأنَّ هناك فتيات مغناجات يتسلمن الأموال، ولم أنتقده فحسب، بل من منطلق مصلحتي، منحته منصبًا، وشجعته. وإذا كان تلفيقُ الأكاذيبِ يمكن أن يعود عليه بمنافع، فلماذا لا يفعل ذلك؟؛ حينها ستزداد المنافع، ويمكنه أن يلفق أكاذيبَ عجيبةً وأكثرَ غرابة!

"أجب، أترى أنك أذنبت وتستحق الموت!"

رفضتُ الإجابةَ عن السؤال. لا أريدُ الموت، أريدُ أن أعيش. لقد أخطأتُ وأودُّ تصحيحَ خطئي، والتضحيةَ بنفسي من أجلِ القضيةِ الشيوعية.....

انهمرت اللكماتُ على جسمي من جديد، ولم تكن موجعة، لكنها حادةٌ كسكينٍ يُوخزُ القلب، وكنتُ دائمًا أشعرُ بأنَّ باو كون نيان يمسك مقبضَ سكينٍ، صنعتُ أنا نصفها!

ولم تستطع لجنةُ الحي ألَّا تبدي رأيها، لكن بالنسبةِ لحادثة الضربِ تلك فقد تحملها باو كون نيان، إلَّا أنَّ حيلةَ اللجنةِ لم تنفع، وأُرغمنا أنا وتشو زي تشي، وكونغ بي شيا على المثولِ أمامَ لجنةِ الحي في الصباحِ

Twitter: @ketab_n

الباكر لطلبِ العفوِ والسماح. لأواجه في نهايةِ الأمر مصيرَ تشو زي تشي نفسه.

كان الوقوفُ أمامِ لجنةِ الحي بتلك اللافتاتِ المعلّقةِ على الصدر أكثرَ مرارة من شعورِ القبضِ عليك. فعندما يُقبَضُ عليك وتنظر إلى الأسفل ترى مساحةً سوداء، ولا يوجد الكثيرُ ممَّن تعرفهم. لكن الوقوف أمامَ بوابةِ لجنةِ الحي أمرٌ مختلف، فأنا أعرف كلَّ مَن يخرجُ من الأزقةِ في الصباحِ الباكر. تلك العجوزُ التي تحملُ سلةَ الخضار شاهدتني وأنا أكبُر، وآه ساو تلك دعتني إلى حفلِ زفافِها، وذلك الطفل..... دعاني بعمي حين رآني منذ بضعةِ أيام!، أخفضتُ رأسي، لا أجرؤُ على النظرِ إلى أحد، ولم يتحمل الناسُ النظرَ إليَّ كذلك. كيف لشخصٍ أن يتغير حاله فجأةً من كونه شخصًا جيدًا ذا أخلاق طيبة، إلى شخصٍ سيُعلَّقُ في المشنقة، يقفُ ساكنًا هناك! وسلك بعضُ الأشخاصِ طرقًا مختلفة، والذي لم يسلك طريقًا آخر كان يعبر بسرعة، ويتظاهر بأنه لم يرَ شيئًا. لكن كان باستطاعتي معرفة مَن مر من خطواتهم وأحذيتهم وجواربهم. وبالطبع الشخصُ الذي تعرفتُ بشكلٍ واضحٍ كان أمي، وكانت قد ربطت قدميها فيما مضى، ثم تخلصت من الأربطة بعد ذلك، وقد دارت هاتان القدمان الكبيرتان الكثيرَ من الدوراتِ حول ابنها من قبل، وكانتا اليوم ثقيلتين مشتتين، مترنحين ومترددتين.

وحده آه أر لم يكن مكترثًا، واقترب مني وسعلَ بقوة، وقال بصوتٍ هادئ: "لا تقلق، وتحمَّل قليلاً".

ولم تكن كونغ يي شيا قادرةً على التحمل، فقد كانت امرأةً تحب التزيّن وتعتني بمظهرِها الشخصي، وقد حلقوا شعرها حلقةَ اليينغ واليانغ، وعلقوا لافتة كُتبَ عليها امرأةٌ جاسوسة. وبسبب كلمةِ امرأة التي أُضيفت إلى جاسوسة، كان من السهل للغاية أن تجذب أنظارَ الناس وتستثيرهم،

Twitter: @ketab_n

لأنه لن يخطرَ ببالِ أحدٍ أنَّ هناك جاسوسةً تجيدُ الطهي، كما أنَّ الناس يظنون دائمًا أنَّ الجاسوسة تقيمُ علاقات عبثيةً مع الرجال. هذا بالإضافة إلى تشو زي تشي اللعين الذي اعترف بأنَّه رأى كونغ بي شيا تنزع الملصقَ من على علبةِ الطعام المحفوظ وتضعه تحت لوحٍ زجاجي، ثم قامت بإحراقه حينما طُبِّقَ قانونُ تحطيمِ الأشياءِ الأربعة القديمة(*)، ممَّا زاد من حبكة قصةِ باو كون نيان. كانت التعليماتُ السريَّةُ مدونةً خلفَ الملصق. شعرتُ كونغ بي شيا بالحرج، والغضب، والقلق، ولم تمر نصف ساعة حتى تهاوت على الأرض، ووجها ينزف، وفقدت وعيها. ولحسن الحظ أنَّ مدير لجنةِ الحي لم يكن في نيته أن يعادي أحدًا، فأمرَ أحدَهم بمساعدتِها على النهوض.

شعرتُ تجاه تشو زي تشي بقدرٍ أكبر من النفورِ والكراهية، وكنتُ أقفُ على مسافةٍ بعيدةٍ عنه أثناء طلبنا العفوِ والسماح، لأريه أننا مختلفان عن بعضنا البعض. فإن أُدين تشو زي تشي بالشراهة فلا بأس، ففي تلك الأحوال، لن تكون الشراهةُ مسألةً عظيمة. ولكن لماذا تخافُ الضربَ لهذه الدرجة، أم من أجلِ السعي إلى راحةٍ عابرةٍ مؤقتة، وقد وصلت بكَ الجرأةُ إلى عدمِ الاكتراثِ بالعلاقةِ الزوجية، وأفشيتَ بطيشٍ عن تلك التفاصيل. ولهذا كان يجب أن أصل إلى نتيجة، أنَّ الأشخاصَ النهمين بطبعهم جبناء، وسيلجأ إلى كلِّ الطرق، ولن يكترث لما هو صواب وما هو خطأ، ويحاول باستماتة من أجلِ حمايةِ وإرضاء تلك المعدة الصغيرةِ للغاية، المثيرةِ للشفقة القبيحةِ المنظر!

في صباح اليوم التالي، جاء آه أر برفقةِ أكثر من عشرةٍ من عمالِ الشحن، كلُّهم أقوياءُ البنية، يرتدون قبَّعات الخوص. وكانوا يقطعون الطريقَ جارين عربةً كبيرة، تحملُ هراوات، حبالاً وأزاميلَ حديدية. وحين

(*) التقاليد، العادات، الأفكار، الثقافة.

Twitter: @ketab_n

مرت العربةُ أمامنا توقفت، وهتف شخصٌ بصوت مرتفع: "مَن أمركم بالوقوفِ هنا؟"

ذُعر تشو زي تشي مرةً أخرى، ورد بارتباك: "رئيس لجنة الحي".

أشارَ آه أر بيده قائلًا: "ليذهب بعضكم ويأتيني بالمدير".

تزاحم خمسة أو ستة أشخاص أمام البوابة ودخلوا، ثم عادوا بالمدير.

"هل أنت مَن طلبت منهم الوقوفَ هنا؟"

"نعم، من فضلك مَن أنتم؟". شَعُرَ مديرُ لجنةِ الحي بأنَّ شيئًا مًا كريهًا علىَ وشك الحدوث.

"نحن مجموعةُ الهراوات، اسمعني، لا يُسمح بالوقوفِ هنا، هذا يعطلُ المرور!". قال ذلك بينما ذهب أحدهم وسحب هراوةً من العربة، وإزميلاً حديديًا.

أشارَ المديرُ بيده بسرعة وقال: "يا رفاقَ الثورة، يمكننا مناقشة هذا الأمر، يمكننا مناقشته".

رد آه أر: "حسنًا إذَن، إذا رأيت أنهم لا يريدون الاعتراف، فليذهبوا إلى الزقاقِ عند المنعطفِ وينظفوه".

كان المديرُ شخصًا اجتماعيًا متمرسًا في التعاملِ مع الناس، وقد فهم على الفور ما يقصده آه أر، فلم يكن لازمًا أن نتعرض للضرب، وأشارَ لنا قائلاً: "اذهبوا، عودوا إلى منازلكم وأحضروا مماسح".

رمقني آه أر بنظرةٍ فَرِحَة وقال: "التكاسلُ غير مسموح، نظفوا جيدًا!"

ضحكتُ في سري عندما سمعتُ ذلك، فذلك الزقاق عند المنعطف كان زقاقًا مهجورًا، لا يزيد طوله عن ثلاثين مترًا، ولا يحتاج سوى عدة مسحات".

Twitter: @ketab_n

ومع ذلك لم أتمكن من الابتعاد عن تشي زي تشو، فرفعتُ الممسحة ودخلتُ الزقاق، وكان مسمَّرًا خلفي، أينما مسحتُ يمسح، ومتى توقفتُ يتوقف، محاولًا أن يجد فرصةً لشكري: "إنك صديقٌ جيد، ونِعمَ الصديق!"

فصرختُ فيه قائلًا: "إنَّ أصدقائي ليسوا شَرهين!"

Twitter: @ketab_n

9 ـ التغيُّر

وفي الحقيقةِ لم يمر وقتٌ قصير، بل تسعُ سنواتٍ مرت، تسعُ سنواتٍ لم أرَ خلالها تشو زي تشي، ولعلَّه لا يزال يسكن في المنزل رقم 54 بينما تركت أنا وعائلتي المدينةَ وذهبنا إلى الريف.

تسعُ سنواتٍ ليست بالفترةِ القصيرة، فكلُّ ما رأيته وسمعته بالإضافةِ إلى تجاربي الشخصية كان كافيًا لأتأملَ مليًّا مسألةَ الطعام. وبهذا الشكل أتممتُ عامي الخمسين.

وفي يوم عيد ميلادي، ذبحت أمي دجاجة، وجلبت بالواسطة جينًا من خمر (يانغ خاي دا تشوي)، وشربتُ عدةَ كؤوس وأنا أشعرُ بالهم والحزن. فجأةً نهضتُ مذعورًا، كيف حدث ذلك: لم أفعل شيئًا في حياتي، وقد وصلتُ إلى سن الخمسين!، في بدايةِ فترةِ التحرير كنتُ أعقد الاجتماعات مع رجالٍ في سن الخمسين وأكثر، وكانوا دائمًا يواجهونه بنظراتهم أثناء صعودهم المنصة ونزولهم عنها. وأنا أعتقد، أنَّ مَن بلغ سنَ الخمسين يُعتَبرُ شيخًا ، وفي الحياةِ الريفية، الرجلُ الذي بلغ الخمسين إذا كان لديه أبناء، وهؤلاء الأبناء بارون بوالديهم، لا يحمل أيَّ هم. "حينما يشتعلُ رأسُ الرجلِ شيبًا، يسكبُ دائمًا دموعَ البطل!"، وعلى الرغم من أنني لستُ بطلاً، فإنني

Twitter: @ketab_n

ذرفتُ دمعتين. ووسط الدموع ونشوة الخمر أرخيتُ العنانَ لخيالي: إذا منحوني فرصةَ العودةِ إلى العملِ من جديد، سأقوم أولاً..... وثانيًا..... كنتُ أُشبه الحالم. إنَّ الأحلامَ نوعٌ منَ الحدسِ كذلك، يمكنها أن تتحقق أحيانًا، لكن تحقيقها لا يكون سهلاً كما في الحلم.

بعد مرورِ الأيامِ العصيبة، عدتُ إلى سوجو. هذه المرة لم أعد بحقيبةِ الظهر فقط، بل عدتُ برفقةِ عائلتي، ومستلزماتِ المنزل، والأثاث، وأدواتِ الزراعة مُحمَّلة في عربة لوري. شعرتُ بأنني غيرُ معتادٍ على المدينة، وبأنها غريبةٌ ومألوفةٌ في الوقتِ ذاته. لم تتغير الشوارعُ الكبيرةُ والحارات، لكن من أين جاء هذا العدد من الناس!، فأهالي سوجو في أوقاتِ فراغهم لا يذهبون للتنزهِ في الحدائق، بل يملأون الشوارع. وإلى الآن، يجب عليك أن تحاذر وأنتَ تعبر الشارع!، وعندما أصادفُ صديقًا لم أره منذ سنواتٍ عديدة، كان بإمكاني أن أتبادل معه الحديثَ على جانبِ الرصيف، ويجب أن أرفع صوتي وأنا أتحدث، وبجانبي يمر الناسُ بلا توقف. ولم يفلح توزيعُ السُلطات في تقليلِ عددِ السكانِ بالمدينة، بل جعلت مدينةً كانت في الأصل هادئة، تعجُّ بالسكان. كانت مزدحمةً بالسكان إلى حد أنني لم أجد مكانًا أمكثُ فيه، واضطُررتُ للسكنى عند أحد أقربائي. وكان شيئا جيدًا أنني سأبتعدُ عن تشو زي تشي، فقد كان في شرقِ المدينة، وكنتُ أنا في غربها.

جاءني رفيقُ المجموعةِ للتشاور. وكان رفيقي ذلك في عمري تقريبًا، وقائدي الذي جعلني أتضور جوعًا لمدةِ ثلاثةِ أيامٍ سابقًا فارق الحياة، لترقد بسلام، فقد "قفز طوعًا من مبنى" في مدينةٍ أخرى. ودينغ صاحبُ الرأسِ الكبير الذي يعرف كلَّ شيءٍ مات أيضًا، وقد قضت "معرفته بكلِّ شيء" على حياته، أما أنا ذلك الشخصُ القليلُ المعرفة لا أزال إلى الآن حيًا أُرزَق.....

"ترى المجموعة، أنه من الأفضل أن تعود إلى عملك القديم، ما رأيك؟"

Twitter: @ketab_n

لم أبدِ رأيًا، بل شعرت فقط بحزنٍ شديد، ولم أتمالك نفسي من البكاء. وإذا كان قائدي العجوز هو مَن يجلس أمامي الآن، كنت سأحتضنه وأبكي. أيها القائد الشيخ، لا داعي لأن تجعلني أتضور جوعًا لأيامٍ ثلاثة، لقد فهمت تمامًا معنى تناولِ الطعام؛ اطمئن، يا دينغ صاحبَ الرأس الكبير، لن أدس الملفوفَ وشرائطَ اللحم الرفيعةَ في أفواهِ الناسِ بعد الآن. سأعمل بجِد، سأضاعفُ الوقتَ ثلاثةَ أضعاف، جزءًا من أجل القائد الشيخ، وجزءًا لك.....

"لا داعي للتأثر، ما فات فات، ولا يزال أمامنا الكثيرُ من الصعوبات".

أومأتُ برأسي. كان الأمرُ في غنى عن ذكره، فكلما مررنا بأزمةٍ تؤثرُ أولًا على الطعام؛ وبعد مرورِ الأزمةِ تكون الموجةُ الأولى هي الهجومَ على الأسواق، بعدها نفكرُ في التأنق، ونتذكرُ المراوحَ وأجهزةَ التلفزيون.

وكان تخميني في محله، ولَكِنّ هناك أمران لم يخطرا ببالي. فقد توقفت الفوضى بعد عشرِ سنوات، لكن الحركةَ كانت ممتدةً على مساحةٍ واسعة! وكان الناسُ يتحركون في كل مكان، ويوصلون ما قُطِعَ من علاقات. وعاد المقاتلون لزيارةِ أقاربِهم، وزملائِهم، ورؤسائِهم، وهناك مَن قضى عشرَ سنوات في السجن، ومنهم مَن قُطِعَ الاتصالُ معه بعد حركةِ مكافحةِ اليمينيين. كان الناسُ يسألون بعضهم البعض، مَنْ من الناس لم يمت، وأين مكان فلان. "حسنًا،، لنذهب إليه"؟ وقد فوجئتُ تقريبًا كلُّ عائلة:

"آه، ماذا تفعل هنا....." وعلى الرغم من أنني مازلت أعارضُ الشراهة، فإنني في هذه الظروف، قبلتُ دعواتٍ لتناول الطعام. إنني إنسانٌ كذلك، ولدي مشاعرُ كالآخرين، وإذا كان دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير لا يزال بإمكانه أن يأتي لزيارتي، فسأدعوه لتناولِ الطعامِ لثلاثةِ أيامٍ متواصلة!.

وكان هناك أمرٌ آخرُ لم أحسب حسابه، وهو ازدهارُ السياحة. لم نكن نستخدم كلمةَ السياحةِ في الماضي، بل كنا نستخدم كلمة "التنزه"، وكانت

Twitter: @ketab_n

تحملُ ضمنًا معنىً سلبيًا. أما الآن أصبح لها معنى جديد، هو الاستمتاعُ بمشاهد البلادِ الطبيعيةِ الجميلة. وأيًا كان معناها، فأنا لا أعارض ذلك، فالإنسانُ حيوان عليه أن يتحرك هنا وهناك. خاصةً للترحيبِ بأصدقائنا القادمين من البلدانِ الأجنبية، واصطحابهم للتعرفِ على ثقافةِ بلدنا، وتعلُّمِ كلماتٍ أجنبية كذلك. ولا يساورك ظَنٌّ بأنَّ حدائقَ سوجو كلَّها جبالٌ وأنهارٌ اصطناعية، أو أنَّها من صنعِ الإنسان، اسمحوا لي أن أسأل: أيُّ حضارةٍ من حضاراتِ العالم ليست: من صنع الإنسان؟، وعلى الرغم من أنَّ الجبالَ والأنهارَ الطبيعيةَ عظيمة، فإنها لا تعتبرُ حضارة، بل هي من صُنعِ الرب. بالإضافةِ إلى أنَّ حدائقَ سوجو الاصطناعية أكثرُ نموذجية من الحقيقة، بديعة، وجميلة، وفريدة من نوعها، وهذا ليس تفاخرًا!.

وماذا عن وجباتِ سوجو؟ الإدارة. ففي ذلك المطعم القديم لم يكن بإمكانك تناول الطعام والاستمتاع في آنٍ واحد، وطالما لا ترفض دعواتِ تناولِ الطعام، ولا السياحةَ، وترحبُ بالأجانب، لن يمكنك أن تتراجع أو تتخلف عن ذلك، وإذا تخلفت سيكون الضربُ جزاءَك.

بالضبط، في البداية كانت تعليقاتُ الناس كثيرة للغاية، مَن يتذمر من مذاقِ الطعام، مَن يتذمر من قلةِ الأصناف، مَن يتذمر من طريقةِ التعامل. مَن منهم يُعلِّق، مَن يشتكي، مَن كان يشيرُ إليَّ وينهالُ بالشتائم. وقد تشاجر باو تشين نيان مع مجموعةٍ من الشباب، ونالَ عدةَ لكمات!

لم يكن ثمة مخرج، كان باو كون نيان بحاجةٍ لتقويم. في أثناء الثورة الثقافية لم يكن عاملاً، بل كان قائدًا، وفي ذلك الوقت كان يصرخ صرخة، فيقف كلُّ الزبائن في المطعم، ويقرءون معه بعض المقتطفات، أولاً..... بعدها يعلن قوانينَ تناول الطعام: الشباك الأول للخضار، الشباك الثاني للأرز، والشباك الثالث للحساء؛ اغسل الصحونَ بعد انتهائك، وبهذا تكوَّنت بركةُ مياهٍ في قاعةِ الطعام، ولقد أتم التجديدات التي قمت بها في البداية على أكمل وجه!

Twitter: @ketab_n

كان الناس يتذمرون مني، وكنتُ أتذمرُ منهم كذلك، إلَّا أنني كنتُ أتذمرُ في سري: "الوضع الحالي، يا له من وضعٍ صعب....."؛ لا يمكنني أن أُظهره في قاعة الطعام، وإذا كنتُ سأنضم إلى الجميع، فسأُنفجر ذلك المطعم!، يجب أن أنتبه قليلاً، سني ليست صغيرة، ويجب أن أكون حذرًا. خاصةً مع تشين كون نيان، يجب أن أكون متفاهمًا معه، إنَّه ينتظرُ طوالَ اليوم أن أنتقمَ منه!، هذا صحيح، لقد ضربَ شخصًا أثناءَ الثورةِ الثقافية، لكنه لم يضربْ سواي، ولم يضربْ شخصًا آخر. أمَّا تشو زي شي فقد اعترف بسرعة، ولم يطْلَه الضرب، ولم يكن هو الشخصَ الذي ضرب كونغ بي شيا. ولقد خُدِع تشين كون نيان كذلك، إذ لم يعملْ مديرًا، وكانت شكواه أضعافَ شكواي!

بعد تلقيه تلك اللكمات، جاء إلى مكتبي، ووجهه يُعبِّرُ عن الحرج: "أيها المدير قاو، أنا...حول ما حدث في الماضي، سامحني....."

أشرتُ بيدي مسرعًا: "انسَ ذلك انسَ ذلك، لا تذكرْ الماضي، لا يمكنني أن أضع اللومَ عليكَ بالكامل. إذا كنتَ قادمًا للنقد الذاتي، فتوقفْ هنا؛ إذا كنتَ قادمًا للحديث في أمرٍ ما، هاتْ ما عندك، لا داعي للتردد".

نظر باو كون إليَّ نظرة ، وقال بتردد: "أرى..... أنني لا أصلحُ للعملِ كعامل، ما أتفوه به يخرج بشكلٍ مختلف عمَّا أريدُ قوله، ويثيرُ غضبَ الناسِ بسهولة. وكلُّ الأحلامِ التي تخيَّلتُها في السابق لم تكن واقعية. ومنذ اليوم لن أعتمد على الصراخ والصياح، أريد الاعتمادَ على مهارتي في كسب العيش، ووضعها في المقامِ الأول. ولهذا قررتُ أن أتعلم حرفة".

"هل تريد مغادرةَ المطعم؟"

"لا، ليس هذا. أريد أن أعمل طباخًا، أن أتعلم فنَ الطهي. وعلى كلٍّ حال، سيكون من اليسيرِ تعليمي عن الآخرين".

"أوه....." دار رأسي، وفكرت في مشكلتين، الأولى هي سلوكُ باو كون في الخدمة، أخشى ألاّ يتغير سلوكه، ولا أستطيع أن أضمن أنَّه لن يتشاجر

Twitter: @ketab_n

مع غيره إذا ما عمل فترةً طويلة. المشكلةُ الثانية هي أنَّ المطبخ بحاجةٍ إلى أشخاص، وقد أصبح تدريبُ طباخينَ شبابٍ مشكلةً كبيرة. لم أقلْ كلمةً أخرى، ووافقت على الفور.

كان باو كون نيان راضيًا للغاية، ومضى يهتف في كلِّ مكان: "اطمئنوا، ذلك السائرُ على مسارِ الرأسماليةِ لن ينتقم، ومع ضربي إياه، لم يضمرْ لي الحقد، ولا يهم حقًا إن ألصقت مُلصقاتٍ جدارية أو أرسلت عدةَ رسائل!"

ولا تستخف بما أشاعَه باو كون نيان، لقد جعلَ الناسَ تشعرُ بالإطمئنان بالفعل. والناس تتمنى استقرارَ البلد، ولا يود أحد أن تسوء أحوالُه مرةً أخرى. وعلى الرغم من أنَّ الشكاوى كانت كثيرة، فإنها كانت من أجلِ تحسينِ الوضع، وليست شكاوى سلبية، وإن كانت متسرعةً بعض الشيء، فالتعجلُ نوعٌ من القوةِ المحركة أيضًا، وأفضل دائمًا من عدم الاكتراث.

وقد بحثنا أنا ورفاقي بدقةٍ في آراءِ الزبائن، واكتشفنا أنَّه إلى جانبِ مشكلةِ التعامل معهم، أنَّ طلباتهم متباينة، منهم مَن يريد أن يشبع، ومَن يريد أن يتناول طعامًا جيدًا؛ ومَن يريد وجبةً سريعة (ليذهبَ للتنزه)، منهم مَن لا يريد وجبةً سريعة (تَجَمُّع أصدقاء)؛ منهم مَن يسأل أولًا عن الوجباتِ المشهورة، ومَن يسأل أولاً عن أسعارِ الوجبات؛ ومَن يشتعل غضبًا بسبب الانتظار، ومنهم مَن يتذمر بسبب الأسعار. وليس باستطاعتي دس الملفوف وشرائح اللحم الرفيعة في أفواه الناس، ولكن الوجبات لم تخلُ منها، وكان علينا طبخها جيدًا.

وقد تحرر تفكيري كذلك، ولم أعد أعالج الأمورَ بالطريقةِ ذاتها، كما أضفيتُ قليلًا من اللمسات الغربية. فلم أعد أُطلق على الطعام وجبات الشعب، بل "تيك آواي"، نوعٌ من الخضار، صحنُ شوربة، وصحنُ أرز، تأكله بسرعة وتذهب للتنزه، وإلا لن يسعك الوقت. وفي الحقيقة فإنَّ "تيك آواي" ووجباتِ الشعبِ متقاربة، لكن "تيك آواي" أكثرُ فاعلية. وإلَّا، فما أن يرى

Twitter: @ketab_n

الناس "وجبات الشعب" حتى يسارعوا إلى دخل المطعم، فالكل يحب الرفاهية.

وقد جهزنا الطابقَ الأولَ من المطعم بديكورِ المطاعمِ السريعة، بكنباتٍ جلدية تشبه مقاعدَ القطار. ومَن يجلس ويتناول الطعام سيشعرُ كأنه في رحلة. أمَّا الشباب، فكانوا راضين، مفعمين بالحيوية، كما أنَّ الأمرُ كان جديدًا، ولم يكلفهم الكثيرَ من المال. في شبابي كنتُ أعرفُ عن الجرَّارات فقط، بينما الشبابُ الآن يعرفون أكثرَ مني، حتى إنَّهم يعرفون أنَّ هناك نوعًا من المطاعم في الغرب يُدعى المطاعمَ الدوارة. وأنا لا أدري شيئًا عن كيفيةِ دورانها، الكنباتُ الجلديةُ على أيِّ حال تعطي إحساسًا بالحركة أثناءَ تناولِ الطعام. بالطبع، مذاقُ الطعامِ السريعِ جيد، ويمكنك أن تضيف ما تريد، سمكًا مدخنًا، الأضلاع، الروبيان المقلي، وشرائحَ الدجاجِ الباردة. وقد جاءني أحد أصدقائي الشباب الذي كان سعيدًا للغاية بعد تناولِ وجبتهِ وفرقعَ بأصابعه قائلًا: "هيه، كان من الأفضل أن تأتي بزجاجةِ ويسكي!". لكني لم أوافق على هذه الفكرة، أخشى أن يكون الويسكي شبيهًا بالفودكا.

وفي الطابقِ العلوي أقمنا ركنَ الوجباتِ المقلية، وأنجزنا تجديداتٍ أخرى في قاعةِ الطعام التي تشبه قاعةَ اجتماع، وقسَّمناها إلى غرفتين مختلفتين في الحجم، الأولى بها موائدُ مربعةٌ من الطرازِ القديم تكفي لثمانيةِ أشخاص، كراسيها من خشب الماهوجني، ويمكن وضع الصينية الخشبية الدوارة إذا كان عدد الأشخاص أكثر، كما وضعنا في زوايا الغرفة عددًا من نخلات سيكاس الساغو وغيرها من النباتات. كبارُ السن يحبون تذكرَ الماضي، فما إن يدخلوا ويلقوا نظرةً على المكان حتى يومئوا برؤوسهم قائلين: "آه، إنَّه مثل السابق تمامًا!". وفي الحقيقة ليس تمامًا، فإذا كان كالسابق، سيعلِّقون قائلين: "ما هذا، بعد مرور عشرين عامًا، ولا يزال المكانُ باليًا!"

Twitter: @ketab_n

وعندما كنتُ منهمكًا فيما أفعل ويغطيني الغبار، وأبدو في حالٍ سيئة، سمعتُ أحدهم يقول خلفي:

"دائمًا هذا الشخص العجوز، كان في السابق هو مَن يهدم، والآن هو مَن يبني كذلك، لماذا لم يفعل ذلك من البداية!.

أحسستُ وأنا أسمع ذلك بقلبي يغوص، ماذا، هل أصبحتُ شخصًا عجوزًا أيضًا! أن أتقدم في السن.....وأكون عجوزًا فلا بأس، أمَّا ماذا تعني كلمة الشخص تلك؟ حسنًا لا يهم، فإن كنتُ عجوزًا ولا أستطيع فعلَ شيء بيدي، إلَّا أنَّه يمكنني دائمًا استخدام ما يقع تحتها من أدوات. إلى جانب ذلك لم تكن مرحلةُ إقصائي وتأهيلي تكرارًا سهلاً، فقد تغيرت من داخلي، وثمة تقدم؛ وهذا يُسمَّى لا بناء دون هدم. المؤسف في الأمر أنَّ عملية الهدم وصولًا إلى البناء استغرقت أكثرَ من عشرين عامًا، ولم يكن فؤادي ليحتمل كذلك.

وبعدَ تجديدِ المطعم وإضفاءِ لمساتٍ من الطرازِ الغربي عليه، أصبحت رغبتنا في تقديمِ الوجبات التقليدية وتحسين جودتها أمرًا صعبًا، كانت الصعوبةُ تكمن في عددِ الأيدي العاملة. فيانغ تشونغ باو ومَن في جيله من الطباخين كانوا يتقاعدون واحدًا تلو الآخر، منهم مَن وصل إلى سن التقاعد، ومنهم مَن يحاولُ بكل جهدهِ التقاعدَ مبكرًا، وترك عمله لأولاده. وعلى الرغم من أنَّ جميعَ الوجباتِ لها أسماء، فإنَّ هناك أسماء لم يسمع بها الشبابُ من قبل على الإطلاق، كما أنهم كانوا قلقين، ويرغبون في التعلم، ويحنون إلى يانغ تشونغ باو الذي لم يقابله الكثيرُ منهم من قبل، لكنهم سمعوا أستاذهم يذكره، ويقول إنَّ مهارةَ يانغ تشونغ باو كذا وكذا، ولعلَّهم ذكروا بالتأكيد كيف كنتُ أعامله في الماضي. فالتاريخ لا يُسجَّل في الكتب فقط، بل تتناقله الأجيالُ على ألسنتها.

قررت أن أزور يانغ تشونغ باو، وأتمنى ألَّا يتذكر ما حدث في الماضي، وأن يأتي لإلقاءِ محاضراتٍ في المطعم، وسنعطيه أجرًا كالمعلمين، كلُّ درسٍ بثمانية يوانات.

Twitter: @ketab_n

في اليوم الذي ذهبتُ فيه كان المطرُ يهطل بغزارة، لكنني ذهبتُ رغم ذلك!.

عندما رآني يانغ تشونغ باو قادمًا تحت المطر، تأثر للغاية: "آه.....لازلت تتذكرني!". وفي الحقيقة لقد تقدم في السن، وأصبح مترنحَ الخطى، ولم يكن يسمع جيدًا. وحينما أوضحتُ له سببَ مجيئي وانتقدتُ نفسي نقديًا ذاتيًا، شدَّ على يدي بقوة، وربتَ ظهرها: "يا لك من شخص، لماذا تقول هذا الكلام، لقد نسيتُ تلك الأمور منذ زمن. إنني أذكر فقط أنَّ بيتَ والدتي هناك، وأنني تعملتُ الحرفةَ هناك، وهناك كبرت. ولقد قررتُ عدةَ مرات أنَّه يجبُ عليَّ قبلَ موتي أن أذهب إلى منزلِ والدتي لأرى إخوتي وأخواتي. وإذا دعوتني سآتي إلى مطعمكم، وإذا لم تدعني سآتي على كلٍّ حال، لقد سمعتُ أنَّ أحوالكَم جيدة الآن!"

تأثرتُ للغاية عند سماعي حديثه، كان هذا فكر عامل، ومودة عامل، كان يضمرُ محبةً بالغة لمهنتنا، كانت محبةً أعمقَ من محبتي.

جاء يانغ تشونغ باو برفقةِ حفيده. في البداية ألقى نظرةً على المطعم من الخارج والداخل، ولم يتوقف عن الثناءِ عليه والإيماءِ برأسه، قائلاً إنَّه لا يمكن مقارنته بالسابق، وخاصةً ذلك المطبخ الفسيح، والثلاجات، والشفاطات، وأدوات الطهي، والموقد الأبيض اللون، لم تتوافر لديه مثل هذه الأدوات في وزارة الاتصالات حينما كان يعمل فيها سابقًا. أعطيته كلَّ قوائم الطعام وطلبتُ منه أن يلقي نظرةً، فقرأها بدقة.

حينما بدأ يانغ تشونغ باو إلقاءَ محاضرتِه، جاء جميعُ مَن في المطعم، وملأوا قاعةَ الاجتماعاتِ الصغيرةِ بالكامل. طلبتُ منه أن يحرر فكره، ويتحدث بحرية، ويشير إلى نقاطِ الضعف. ولكن كلامه كان محددًا، مُختصَرًا ومعقولًا:

"أنا أرى، أنكم تقومون بعملكم بشكل جيد. وإذا تحدثنا عن أطعمةِ سوجو المشهورة، كلكم تقريبًا تعرفونها، وتُعدُّونَها بشكل جيد. المشكلةُ تكمن

Twitter: @ketab_n

في عدمِ كفايةِ المقادير، كما أنَّ الطلبَ كبيرٌ عليها. وهذا أمرٌ صعب، لقد ازدادَ عددُ الناس الآن، ولا يكترثون إذا ما دفعوا عشرة أم ثمانية يوانات للوجبة. وقد سمعتُ أنَّ كثيرًا من الوجبات لم تعرفوا عنها شيئًا من قبل، وهذا أمرٌ مفهوم، فالوجبةُ الواحدةُ دائمًا ما يكون لها عدةُ أسماء، مثل وجبة "أفضلُ وجبةٍ على الأرض"، وهذا الاسمُ يصيبُكَ بالذعر، ولكنها في الحقيقة حساءُ الأرزِ المُحمَّص....."

انفجر الجميعُ ضاحكين.

"هي بالضبط حساءُ الأرزِ المُحمَّص، وهي موجودة في قائمةِ الطعام وتُقدَّمُ كلَّ يوم. وهناك بعضُ الأطعمةِ المشهورة التي يجب عليكم معرفتها، لكن لا يمكن أن تدرجوها في القائمة، لأنَّ مقاديرَها لن تتوفر بكميات كبيرة. مثالٌ على ذلك حساءُ كبد سمك البونيت، كون حجمُ السمكةِ صغيرًا، وحجمُ كبدها صغيرًا كحبةِ فول، فمن أين لك بكمياتٍ كبيرةٍ من سمكِ البونيت؟، وفي الحقيقةِ كبدُ سمكِ البونيت بلا طعم، لكنه يعتمدُ على الحساء، والبهارات، والمقادير الأخرى، وإضافةِ الكثيرِ من التوابل. وقد أُطلِق على حساء البونيت ذلك الاسم، لأنَّ يو يوه رين العضوَ المؤسسَ لحزبِ الكومنتيانغ حينما ذهب إلى مطعم (شي جيا) وتناول وجبةً هناك، كتب قصيدة، كان من بينها سطرٌ شعري، "نشكرُ حساءَ (كبد سمك البونيت) في مطعمِ شي جيا"، ومن هنا اشتهر المطعم، واشتهر حساء (كبد سمك البونيت). هناك بعضُ الأطعمةِ المشهورة نصفُها يعتمد على غرابتِها، والنصفُ الآخرُ على التبجحِ والتباهي".

استندتُ إلى ظهرِ الكرسي، وأخذتُ نفسًا عميقًا.

"بالإضافةَ إلى افتقادكم كثيرًا من الخبرات، لماذا تجلبونَ سمكَ اليومِ السابقِ وتضعونَه في الثلاجة؟، لماذا تكوِّمون الملفوفَ في الشمس؟، ما عدا الخمر في المطعم، يجب أن يكون كلُّ شيءٍ آخر طازجًا. في السابق كان

Twitter: @ketab_n

يوجد طبق يُسمَّى مكعباتُ الدجاجِ المقلية، يستغرقُ إعدادُ الوجبةِ ثلاثَ دقائق بدايةً من ذبحِ الدجاجةِ إلى تقديمها، وتبدو قطعُ الدجاجِ في الطبق كأنها لا تزال حية!"

رفع باو كون نيان يده وعقَّب قائلًا: "أيها المعلم يانغ، أخبرنا، هل يوجد سرٌّ وراءَ هذه السرعة؟".

"لا يوجد سرٌّ، بل هي سرعةُ الحركةِ بالأساس، يجب أن تجهز كلَّ شيءٍ أولًا، فقبل أن تجف دماءُ الدجاجة تغطسها في الماءِ المغلي، ثم تنزع الريشَ من صدرها، وتقطِّع صدرَها وتضعه في القِدر، ولا تهتم بأي شيء آخر. وهذا.....هذا يُقدَّمُ كعرضٍ بشكلٍ أساسي، كما أنه يجعل الطباخَ أكثرَ شهرة".

حدَّثنا يانغ تشونغ باو لمدةِ ساعتين، ثم ذهبَ إلى المطبخ وقدَّمَ لنا عرضًا؛ كانت حماسةُ الرجل العجوز متقدة، ورفض أن يستريح، وبعد أن رجع إلى منزله عاوده مرضه، ولزم الفراشَ لأكثر من عشرةِ أيام.

خطرَ ببالي في البداية أن أقدم تقريرًا، ليعملَ يانغ تشونغ باو مُعلمًا، ونُعدِّل من راتبه السابق، ونعطيه علاوةً على الدروسِ الخارجية. لكن الآن لن أزعجه مرةً أخرى، وسأدع العجوزَ يقضي أيامَه الأخيرةَ في سلام. كانت حماسةُ الشبابِ للتعلمِ عالية، ولا يريدون أخذَ راحة، لقد استفادوا الكثيرَ من الدروس، فكيف يمكنهم أن يتوقفوا!، هذا الكلام صحيحٌ تمامًا، ففي الماضي لم أهتم بالكفاءات، ولم تخطر ببالي مسألةُ تنميتها وصقلها، ولكن لا فائدة من الأسف الآن، بل يجب مضاعفة الجهد!، مضيت أفكر وأفكر، وخطرت لي فكرة: إعلان وظائف! فمَن يعرف شخصًا يجيدُ إعدادَ وجبةٍ ما، يرشحه، سواء أكان عاملًا أم متقاعدًا، وسيحصل على ثمانيةِ يوانات أجرًا، وإذا كان عجوزًا ضعيفًا، سنرسل أحدًا ليصطحبه بسيارة أجرة.

إلاَّ أنها كانت فكرةً سيئة، فقد أعاد إعلانُ الوظائفِ تشو زي تشي إلى جانبي مرة أخرى!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

10 ـ خبراتُ الزبائن

لا أدري مَن تذكَّر أولًا تشو زي تشي، فما إن ذُكِرَ اسمُه حتى وافقَ الناسُ جميعًا. وهذا أصابني بالذهول، فهل للشَّرِه مثل هذا الصيت الواسع!

نعم، لقد كان السببُ في دعوةِ تشو تزي تشي لإلقاءِ محاضرةٍ واضحًا. وقد بدأ التردُدُ على مطاعمِ سوجو منذ عام 1938. لكنه لم يحصِ سنواتِ تناولِه الطعام في مدينةِ شانغهاي، ومضى يتردد على المطاعم إلى ما قبل فترةِ القفزةِ الكبرى إلى الأمام. وعلى الرغم من انقطاعِه عن المطاعمِ طوالَ سنواتِ المجاعةِ الكبرى الثلاث، فإنَّه لم يتوقف عن البحثِ من الناحيةِ النظرية، وحسبما تقول الشائعات، ففي خلالِ ظروفِ المحنةِ القاسيةِ وضعَ كتابًا لوصفاتِ الطعام. وقد اعترفَ بكلِّ شيءٍ أثناءَ الثورةِ الثقافية، عدا ذلك المخطوط فقد لفَّه في ورقٍ بلاستيكيٍّ ودفنَه تحت جبلٍ اصطناعي. ويمكن أن نُدخل ذلك المؤلِف ضمنَ قائمةِ العلماء، والمُنظِّرين والأدباء، وإن كنَّا لن نتمكن من معرفةِ ماذا كتبَ بالضبط. وقد أصابَ باو كون نيان: "بإمكانِه أن يزيد معارفنا، طالما سيخبرنا بجميعِ الأكلاتِ التي تناولها طوالَ حياته" وافقت. فلن أقحمَ ما يحبه الشخصُ وما لا يحبه

Twitter: @ketab_n

ضمنَ العملِ مرةً أخرى. بالإضافةِ إلى ذلك فأنا لم أرَ تشو زي تشي منذ عشرِ سنواتٍ كاملة، وبالرغم من مرور السنوات العشر تلك فقد كان بإمكاني التفوق عليه، كيف إذَن يمكنك ألاّ تغير نظرتَك نحوه؟، لكنني لم أذهب شخصيًا وأطلب منه المجيء، بل استقل باو كون نيان سيارةَ أجرة وذهب إليه. كان تشو زي تشي قد بلغ من العمر ثمانيةً وستين عامًا، وملائمًا للشرط الذي وضعته حول المُسنِّين الذين سيستقلون سيارةَ أجرة للحضور. وقال باو كون نيان إنَّه يريد انتهازَ تلك الفرصة وينقد نفسَه ذاتيًا أمام تشو زي تشي وكونغ بي شيا، ويعترف بأنَّ ما فعله في الماضي كان اضطرابًا مؤقتًا أصابه. ورأيتُ أنَّ ما يريد فعله صائب، وأمرٌ مناسب أن يقوم هو بالنقدِ الذاتي، فمَن عليه دَين يرده بنفسه، لن أتعهد بكلِّ شيء.

في اليوم الذي جاء فيه تشو زي تشيء، كنتُ أديرُ الاجتماع. وقد سمعت عن بعضِ خبراته من قبل، وتحديدًا عن خبراتِه في تذوقِ الطعام، وقد ترك انطباعًا عميقًا في نفسي، وأردتُ الاستماعَ إلى خطواتِ تقدمِه خلال تلك السنوات.

لم يكن تشو زي تشي شخصًا متحدثًا، خاصةً على المنصة، كان دائمًا يتلعثم، ويرتجف. ولكن الأمر يختلفُ تمامًا حينما يتحدث عن الطعام!؛ يتدفق بحديثٍ سلسٍ مُستفيض، ويلُّونَه بأساليب جديدة. وما إن صعد المنصة حتى سأل المستمعين سؤالاً:

"أيها الرفاق، أخبروني، ما هي أصعبُ مرحلة في الطهي؟"

انتعش الجو في القاعة، وبدأ الناس التخمين:

"اختيارُ المقادير".

"مهارةُ التقطيع"

"مدةُ الطهي".

Twitter: @ketab_n

هز تشو زي رأسه معترضًا وقال: "غيرُ صحيح، غيرُ صحيح، إنها أبسطُ وأكثرُ الخطواتِ تعقيدًا ـ مقدارُ الملح".

تحمس الجميع، ولم يتوقع أحد أن يحكي هذا الذوَّاقةُ أمرًا يمكن لأي فتاة صغيرة عمله. حينما تطهو السيدة الطعام، تجلس دائمًا بجانبِ البئر، تنظفُ الأرزَ وتنادي على حفيدتها: "آه ماو، ضعي بعضَ الملح في القدر". إنَّ أبسطَ الأمور وأكثرَها تعقيدًا في العالم ينطوي على معرفة واسعة، كما أنَّ هناك بعضًا من طهاتنا القدامى هزوا رؤوسهم موافقين، ورأوا أنَّه تحدث مباشرةً في صلب الموضوع.

أردف تشو زي تشي موضحًا: "أهالي شرق الصين يحبون تناولَ الحامض وغربها يحبون تناولَ اللاذع، ويحبون تناولَ الطعامِ الحلو في الجنوب وفي الشمال يحبون تناولَ الطعامِ المالح، ويعرف الناس أنَّ جميعَ مأكولاتِ سوجو حلوةُ المذاق، هذا سوءُ فهمٍ كبير، لأنَّها وإن كانت حلوةَ المذاق، فإنها تتميزُ بالملوحة. حيث يُضفي المِلحُ العديدَ من النكها×، فإذا نسيت مثلًا أن تضيف الملحَ إلى شوربةِ كبد سمك البونيت، فإنها ستكون بلا طعم، بل ستفقد تمامًا أيَّ مذاق. وما إن تضيف الملح، حسنًا، سيكون مذاقُها طازجًا، وسيكون لحمُ الخنزير ذا رائحةٍ طيبة، ونبات حدوة الحصان طريًا، وأعواد القصب هشة. وبعد أن يُضفي الملح النكهة، يختفي ويذوب، ولا يمكن لأحد أن يستطعم مذاقَ الملحِ في الطعام، إلَّا إذا وضعت ملحًا كثيرًا، حينها يمكنك أن تطلق على هذا المذاق: المالح. انتهى الأمر، فأيُّ مهارةٍ في التقطيع، وأيُّ اختيارٍ للمقادير، وأيُّ مدةِ طهي، ستضيع كلُّها هباءً!"

أصابني الذهولُ الشديدُ لدى سماعي ذلك، فكلام تشو زي تشي هذا منطقيٌّ في الواقع!

أكمل تشو زي تشي حديثه المنطقي مستطردًا: "وهذا المقدارُ ليس ثابتًا وإنما يتغير حسب الأشخاص والتوقيت. فعند تجهيز المائدة، يجب أن تكون

Twitter: @ketab_n

الأطباقُ الأولى مالحة، فإذا كانت ذاتَ ملحٍ خفيف لن يستمتع بها الجالسون. لماذا، لأنَّه في بداية تناولِ الطعام، يكون الفمُ صَليفًا(*)، والجسم بحاجة للملح. ويجب ألَّا نضيف ملحًا للأطباق التي تلي البداية، وإذا كنا سنقدم أربعين طبقًا على المائدة، فآخرُ طبقٍ حساء يجب ألاّ يُضاف له ملح، وحينما يتناوله الأشخاص، سيمدحون مذاقه. ذلك لأنَّهم شربوا كثيرًا من الخمر وتناولوا الكثيرَ من الطعام، وتشبَّعت أجسامهم بالملح، في تلك اللحظة ما يحتاجونه هو الماء، وإذا شربتَ مياهًا منكَّهة، بالطبع سيكون مذاقُها مُنعشًا!".

ولم يصف تشو زي تشي الأمرَ من ناحية علميًا ونظريًا فحسب، بل أدخل الكثيرَ من التفاصيل المشوِّقة. وقال إنَّ السببَ وراء عدمِ إضافةِ الملح لآخرِ صحنِ حساء، اكتشفه أحد الطهاة. كانت الوليمة من الساعة السادسة إلى الحادية عشرة ليلًا، وقد نعس الطاهي أثناءَ تحضيرِه الحساء، ونسى وضع الملح، وحينما تنبه إلى ذلك أخذ الملحَ وذهبَ إلى قاعة الطعام، وكان الناس قد تناولوا الحساء بالفعل، وأثنوا جميعا عليه: إنَّ الحساءَ كان أفضلَ الأطباقِ كلها!.

تحدثَ تشو زي تشي لمدة ساعتين، لم يتوقف خلالهما، وترك لدينا شعورًا بأنَّه واسعُ المعرفة، كأنَّه جبلُ ثلج تذوبُ قمتُه. نزلَ عن المنصة وسطَ التصفيق، نافخًا صدرَه وكرشَه، والحُمرةُ تكسو وجهه، وشعره الأبيضُ يلمعُ بضوءٍ فضي، مما أضفى عليه منظرًا مهيبًا. زاحم باو كون نيان الناس، وشد على يد تشو تزي تشي بقوة قائلًا: "أيها العم تشو، لقد كانت محاضرتُك رائعة، لقد سجلت ما قلته، لكني لم أسجله كاملًا، أود زيارتك بجهازِ التسجيل، وأستأذنك أن تعيد ما ذكرته".

"بخصوص ذلك.....لا مشكلة، ولكن من الأفضل أن تأتي عقبَ الساعةِ الثالثةِ بعد الظهر، لأنني أتناول الطعامَ وآخذ قيلولة".

(*) صَليف: أي بلا طعم أو بلا مذاق وتقابلها في العامة المصرية كلمة "عادب".

Twitter: @ketab_n

"طبعًا طبعًا، في محاضراتك القادمة سأسجل كلَّ شيءٍ على الفور، ولن أزعجك. وأريد تنظيم المعلومات"

"ليس ضروريًا، فأنا أرتجلُ حديثي".

"كيف هذا، إنَّ كلامكَ ثمينٌ للغاية، ستكون خسارة إن لم نسجله".

"حسنًا، عندما تنظمه أريني إياه".

"بالتأكيد، بالتأكيد سأجعلك تُلقي نظرةً عليه".

وقد درس تشو زي تشي في معاهد خاصة من قبل، وأضفى ذلك عليه مظهرَ الأستاذِ حين تقدم في السن؛ كان باو كون نيان مهتمًا بجمع ما قاله تشي، وكانت حماسته ساذجة، وقد دعوتُ تشو زي تشي مرةً أخرى، ليأتي الأسبوع القادم ويلقي محاضرة.

ألقى تشو زي تشي علينا ثلاثَ محاضرات، واستعار باو كون نيان مسجلًا كبيرًا، وسجَّل كلَّ ما قاله، وكان مؤسفًا أنَّ الجميعَ فقدوا صبرَهم في المحاضرةِ الثالثة، بعد الحديث المطول عن الملح وكيف يُضاف الملح؟! ولم يكن الطباخون بلا خبرة مثلنا، فهم يدركون أهميةَ الملح، لكنهم كانوا راغبين في معرفةِ أيِّ مهاراتٍ فريدةٍ يملكها تشو تزي تشي في استخدامِ الملح. لم يكن تشو زي تشي مثل يانغ تشونغ باو، فهو يوافق فقط على صعودِ المنصة، ولا يوافق على تقديمِ عرضٍ في المطبخ. وفي المحاضرةِ الثالثةِ بدأ في سرد القصص قائلاً إنَّه في إحدى السنوات ذهب برفقةِ أصدقائه إلى "بحيرةِ الصخر"، وتناولَ وجبةً ما متقنةَ الطهي؛ وإنَّه في أحد مهرجاناتِ التاسع المزدوج(*) أكلَ سلطعونًا، وكان طاقمُ تناولِ السلطعون مكونًا من ستٍ وأربعين قطعة، كلُّها مصنوعةٌ من الفضة. واسترسلَ في الحديثِ حولَ نقطةٍ واحدة، أنَّه لا يمكن المقارنة بين أطعمةِ اليوم وأطعمةِ

(*) مهرجانات التاسع المزدوج: مهرجان للمسنين في الصين، يوافق اليوم التاسع من الشهر التاسع في التقويم القمري الصيني.

Twitter: @ketab_n

الماضي، وسابقًا كان يقول إنَّ الإمبراطور كان لا يفهم آداب تناول الطعام، بينما الآن يمتدح أسرةَ تشينغ وكذا وكذا. بالطبع لا يمكنني القول إنَّ حديثَه ليس أفضل من السابق، كما أنَّه أثار بعضَ الشكوك، فالأطعمةُ ليست تُحفًا، كلَّما أصبحت قديمةً زادت قيمتها. وإذا اكتشفت رسومًا جداريةً تعود إلى العصرِ البدائي في أحدِ الكهوف، حسنًا، هذا أمرٌ مثير! ولكن أن يكون اللحمُ الذي كان يُشوى في ذلك الكهف أفضل ما تذوقته؟ بدأ الطباخون في التثاؤب عندما سمعوا ذلك، ومنهم مَن عاد بسرعةٍ إلى المنزل للنوم، ولم يكن راغبًا في سماعِ تباهيه، وفي المحاضرةِ الرابعةِ فقد الأمرُ متعتَه، ما جعل الفتاةَ التي كانت تغني الأغاني الشعبية، والأخرى التي تبيع زهورَ الغارديناليا والفرقةَ المسرحية وغيرهم ينصرفون إلى الطعام.

قررتُ وقفَ المحاضراتِ مؤقتًا، ولكن باو كون نيان اعترضَ، وقال إننا إذا لم ننقذْ تلك المعلومات الثمينةَ في وقتها فسنكون مسؤولين أمام التاريخ!

خفتُ حينما سمعتُ أننا سنكون مسؤولين أمام التاريخ، وأصابت الحيرةُ فؤادي. كان البتُ في الأمر شائكًا، وقد يكون لدى تشو زي تشي الكثير من المعلومات الثمينة التي لم يحكِهَا، أو أنَّه قد أفصح عن كلِّ ما عنده ونحن لم نفهم، وبهذا سنتحمل المسئولية!، ولحسن الحظ أنَّ أمورًا مثل هذه لم تعد تؤرقني وتضايقني، وتعلمت كذلك أمرًا، إذا ساورتني الشكوك حولَ شيءٍ ما، فلا يجب أن أتخذ قرارًا نهائيًا، سأبني سدًا، وأفتح فتحة، وسأراقبه وهو يسير، حينها نتناقش في الأمر، وسأكونُ على صوابٍ دائمًا.

"حسنًا إذَن، يجب أن يتوقف تشو زي تشي عن إلقاءِ المحاضرات، لأنَّ الناس لم تعد تستمع إليه. أمَّا بالنسبة لإنقاذ تلك المعلومات فبالطبع لا يمكن أن تتوقفَ عن جمعها، لقد بدأتَ على كلِّ حال، وبهذا ستكون أنتَ المسئول، لكنني سأقدمُ لكَ شرطًا لازمًا".

Twitter: @ketab_n

قفز باو كون نيان من الفرح قائلًا: "اشترِ مسجلاً كبيرًا".

"لا يمكنني شراء المسجل، فهذا خاص بالقدرة الشرائية للمجموعة، سنتعرض للنقد إذا اقتربنا منها. ولكن بمقدورك أن تشتري شرائطَ الكاسيت، ويمكننا أن نسوِّي الحسابَ بأرباحِ الدعاية، ولكن لا تشترِ شرائطَ من نوعية TDK اشتر ماركة من صُنْعِ الصين".

رد باو كون نيان برضىً بالغ: "أيها المدير قاو، أشكرك على ثقتك، سأتمُّ هذه المَهمَّة على أكمل وجه".

وبهذا توقفَ إلقاءُ المحاضرات، بعد أن ألقى تشو زي تشي ثلاثًا منها، وكان أجره أربعةً وعشرين يوانًا، بالإضافةِ إلى أجرة التاكسي. إلَّا أنَّ الأمرَ لم ينتهِ عند هذا الحد، بل فتح بابًا آخر، فقد كانت تلك الأشرطة تنتشرُ بشكلٍ كبير.

كان باو كون نيان يشتري شريطين في كل أسبوع، من ماركة TDK وحينما أعطيه النقود أسأله: "متى ستنتهي مَهمَّتك تلك؟"

يرد باو كون نيان بحيوية: "آه أيها المدير، لقد زاد إقبالُ الناس، ويريد العديد منهم أن يُلقي تشو زي تشي المزيدَ من المحاضرات، وقد جاءوا طالبين أن أُيَسِّرَ لهم التواصلَ معه، ولا يمكن أن يكون هناك موعدٌ لانتهاءِ هذه المَهمَّة. ونحن لا نريد الانتهاءَ منها كذلك، نرغبُ في تشكيلِ جمعيةٍ للطهي، حتى يكون لنا اسمٌ رسميٌّ حينما نتعامل مع الخارج. سيكون تشو زي تشي رئيسَها، وأنا النائب، وأنت أحدَ مؤسسيها كذلك. وبما أنك مشغول في العمل، فستكون أنت رئيسَ مجلسِ الإدارة، وسيكون لقبًا فقط".

"آه" دارَ رأسي فجأة، وانبثقَ على الفور نوعٌ من ردِ الفعلِ الشَّرْطي، فباو كون نيان كوَّن فريقًا للمواجهة".

"لا لا، لا أستطيع الانضمامَ إليكم، أنا لا أعرف شيئًا عن الطهي".

Twitter: @ketab_n

"لا نحتاج إلى موافقتك، يكفي دعمنا فقط".

"لا لا، لا أستطيع دعمكم، نحن لا نملك تكاليفَ الدعاية، فحينما دعونا جانغ هوان أر في الماضي، لم ننفق سوى ما يعادل ثمنَ شريط كاسيت".

ضحك باو كون نيان وقال: "أيها المدير، ما هذا..... الدعم لا يعني المال، المال، لدينا طريقة للحصول عليه، يمكننا طبعُ كتيبات، بسطاتُ الكتبِ تبيعُ كتابَ موسوعةِ الخياطة، النسخةُ بيوان واحد، فكم تكون الأرباح؟! الكتبُ التي تتحدث عن الملابس يقبلُ الناسُ على اقتنائها، أمَّا كتبُ الطعام ليس لها سوق!؛ وفوق ذلك يمكننا نشرُ تلك التقارير التي نُعِدُّها، ولن نكون بحاجةٍ لدفعِ المصاريف، وسنستردُ تكاليفَ الدعاية".

نظرتُ إليه نظرةَ غضبٍ وإعجاب. وفي الواقع هو يجيدُ التجارةَ أكثرَ مني، فكرتُ في المالِ الخاص، ولم أفكر أنَّ نفقاتِ الدعايةِ قد تكون من المال العام. وكان متوقعًا، أنَّ الأمرَ سيكونُ أسهلَ من إنفاقِ المالِ الخاص. لم يكن لدي أيُّ حقٍ في رفضِ ما يريدون فعلَه، واُضطررتُ إلى إبداءِ رأيٍ يحملُ نُصحًا:

"لا تكتبْ أشياءَ غيرَ لائقة، ولا تكتبْ عن الفتياتِ اللواتي يغنين أغاني شعبية وغيرها من تلك الأمور".

"لا لا، أنا سأُعِدُّها، وهي مختلفةٌ عن الروايات، ستكون معلوماتٍ عامة، ولا تتضمن حكاياتٍ عن علاقاتِ الرجالِ والنساء".

ابتسمتُ، ووقعتُ على الفاتورة: "خذ، اشترِ شرائطَ من ماركة محلية المرة القادمة".

التقط باو كون نيان الفاتورةَ ولوَّح بها: "لا تقلق، لا داعي لأن تقول ذلك، المرة القادمة سنشتري مسجلاً، وآلةً حاسبة!".

ولأكن صادقًا، فأنا لم أصدق كلَّ ما قاله باو كون نيان بالكامل، فإن كانوا يريدون بذلَ مجهودٍ فلا بأس في ذلك، والحديثُ سهلٌ عن إنشاءِ

Twitter: @ketab_n

جمعية ولكن التنفيذ عسيرا! فالجمعيةُ تعتمدُ على مهارةِ باو كون نيان في الطهي، وحديثِ تشو زي تشي عن الملح، وهناك العديد من العناصر التي يجب دراستها، ولهذا لن ينجح الأمر. وباو كون نيان يحب مجاراةَ الموضة، يجاريها بعض الوقت ثم يهملها.

لم آخذ الأمرَ على محملِ الجِد وفكرت فيه ببساطة، واستهنتُ بشكلٍ مبالغٍ فيه بقدرات باو كون نيان. لا بأس، فلم يصبح باو كون نيان خبيرًا في الطهي، لكنه كان متمرسًا للغاية في تقييمِ الأوضاعِ واستخدامِ العلاقات. كان المطعمُ مكانًا عامًا، يزدحمُ بكافةِ طبقاتِ المجتمع؛ والمطاعمُ المشهورةُ بالطبع يكون زبائنُها مشهورين، وطالما تُرحبُ بهم ترحيبًا حارًا، وتُوليهم اهتمامًا، وتُساعدهم في اختيارِ الأطباقِ والمقاعد، فيمكنك أن تقيم معهم علاقاتٍ جيدة. وإن لم تكن قادرًا على إقامةِ علاقاتٍ كبيرة، تستطيع البدءَ بعلاقاتٍ صغيرةٍ تكبرُ بعد ذلك، وبهذا الأسلوب شقَّ باو كون نيان طريقَه إلى قاعةِ الطعام، ينتظرُ الفرصةَ المواتية، ويساعد شخصًا ما في إعدادِ وليمةٍ في منزله. من الممكن إقامةُ الولائمِ في أماكن كثيرة، إذا ما كانت حفلة زفاف، أو تجمع أصدقاء قدامى، ولا ضير إذا أنفقت بعضَ الأموال، كانت العقبةُ الوحيدةُ هي نقصَ الكفاءةِ والأيدي العاملة. غير أنَّ باو كون نيان يبدو حيويًا، وعلى الرغم من أنَّه ليس على هذا القدرِ من المهارة، فإنه يمكن أن يدعو أفضلَ الطباخين. فالطباخ سيطهو الطعام، وتشو زي تشي يجيد التباهي، وباو كون نيان يمكنه القيام بالمساعي الصغيرة، وتكون الوليمةُ شهيةً وغيرَ مُكلفَة، وهذا يجعلك راضيًا. وأثناء تناولِ الجميعِ الطعامِ بسعادةٍ وفرحٍ بالغ، أعلنوا الهدفَ من إنشاءِ جمعيةِ فنِ الطهي، وطلبوا الدعمَ من الجميع. وإذا أنشأوا جمعيةً للتغذية، لن يكون عددُ الأشخاصِ الداعمين على الأرجحِ كبيرًا، فعلمُ التغذيةِ يمكن أن يقي من الأمراض، ويُطيل العمر، لكن هذا من الصعبِ فهمه، ولن يجلب فائدةً ماديةً كما الطهي، لأنَّ الطهي شيءٌ محسوسٌ يمكن رؤيته ولمسه، وإذا

Twitter: @ketab_n

بسطتُ أمامَك مأدُبةً عامرةً فستكون كلمةُ "التَّعَلُّم" مؤثرةً ومثيرةً للاهتمام إلى حدٍّ كبير، كما أنَّ السلطةَ الأكاديميةَ الرجعية(*) قد أُطيح بها منذ زمن، ويعرف الناسُ الآن أنَّ أيَّ معرفةٍ أفضلُ من لا معرفة على الإطلاق، ولا يمكن أن نخطئ في دعمِ العِلم، وحتى إذا ارتكبنا خطأً، يمكننا مناقشة المسائل الخاصة بهذا العِلم، وكلما ناقشنا أكثر ذاعت شهرتنا!.

وكانت شهرةُ تشو زي تشي تزداد باطراد؛ هو خبيرٌ قديم، ألفَّ كتابًا خلالَ السنواتِ العشرِ الكارثية التي مررنا بها، وأيُّ مديرٍ سيُعجب به من صميمِ قلبه، وإذا جاءت عربةٌ صغيرةٌ لاصطحابه يذهب لإلقاءِ محاضرة، أما إذا عُرض عليه مائتا يوان ليكون مستشارًا، فلا يذهب.....

وقد وصلت إلى مسامعي شائعاتُ نشاطِ باو كون نيان في الخارج، ونمو شهرةِ تشو تزي تشي. "ليفعل ما يشاء فأنا أراه، وسأُبدي رأيي في الوقتِ المناسب" وقد حان الوقتُ المناسبُ الآن، لكن لم يكن لدي ما أقوله. لا يمكنني القول إنَّ تشو زي تشي يتفاخر أثناءَ إلقائه المحاضرات، وأمنع الناسَ من الاستماعِ إليه، وكانت المرةُ التي تحدثَ فيها عن الملحِ لا بأس بها. ولا يمكنني نبش ماضيه، وأقول إنَّه كان شخصًا نَهِمًا على الدوام، ويرفض التوبة.....إذا كان ثمة شخصٌ يود إجراءَ بعضِ الأبحاث، فيجب عليه المثابرةُ باستمرار، والتمسكُ بما يفعله!، ولا يمكنني أن أقول شيئًا كهذا بالنسبةِ لباو كون نيان، لا يمكنني أن أقول إنَّه افتتحَ مطعمًا سريًا، ولم يعد يأتي إليَّ لأوقِّعَ له الفواتير. آه، إنَّ الطُرقَ العمليةَ لإنجازِ العملِ بالكاملِ تشبه شخصًا يرفع حجرًا ليسقطَ على قدمه، ثمة مَن يرفع الحجرَ ليسقطَ فوق قدمه على الفور، وثمة مَن يستغرقُ الحجرُ للسقوطِ على قدمه عشرات السنين!.

(*) السلطة الأكاديمية الرجعية هي مسمي التهمة التي وجهت إلى الكتاب والمثقفين الصينيين أثناء الثورة الثقافية، مما دفع الكثير منهم إلي الانتحار لشدة ما عانوه، ولا يقصد الكاتب هنا الإطاحة بالمثقفين بل يقصد انتهاء الثورة الثقافية.

Twitter: @ketab_n

11 ـ الحظُّ السعيد في الطعام الجيد

لم يمر وقتٌ طويل، حتى زارني صديقي القديم آه أر في المطعم. وعلى الرغم من أننا لم نعد نسكن حارةً واحدة، فإن العائلتين كانتا تتزاوران دائمًا. وحينما انتقلتُ إلى مبنى جديد، زارتنا عائلته لتهنئتنا، حتى والده جاءَ مستندًا إلى أحفاده وهو يصعد السلم. وقال لأمي: "مبارك أيتها العمة، لقد عشتِ حياةً مديدة، ومنذ اليوم لا مبررَ للقلق من أن يجعلك صاحب المنزل تغادرين!". لقد كبرت والدتي في السن، ولم يكن باستطاعتها قول شيء، بل كانت تمسح دموعها فقط. كان آه أر يزروني كثيرًا، وكنا نتحدث عن الأيام الخوالي، ونجلس معًا. وفي بعض الأحيان نشعر بأنَّ الحديثَ عن الأيام الخوالي مكرر، ولهذا كنا ندخن السجائرَ ونشرب الشاي، ونجلس صامتيَن، كأنَّنا مستمتعان. لكن كانت تلك المرةَ الأولى التي يأتي فيها مباشرةً إلى المطعم.

رفع آه أر يده حينما رآني قائلاً: "لم أكن لآتي إذا لم يكن لي حاجة، أريد منك طلبًا ما".

"ابني الأكبر سيتزوج يوم الأحد المقبل. وأريد حجز مائدتين في مطعمكم، ولكن لا يوجد حجز إلَّا بعد ثلاثةِ أسابيع!؛ أيها المدير، هل يمكنك مساعدتي؟"

Twitter: @ketab_n

أصابتي الحيرةُ وقلت: "آه، لا داعي لكلِّ ذلك، فنحن نقيمُ الولائمَ من أجل السعي وراء الأُبَّهة، وجمعِ البقشيش، وتسهيلِ الأمر على الناس. هل أنتَ جاهز لتقديمِ بقشيش، كم يمكن لنا أن ندفع؟

"ماذا، أنا لا أخطط لدعوةِ ضيوفٍ مهمين. عائلتك، وعائلتي والأقارب، وبعض الأصدقاء، لا يزيد عددنا عن عشرين شخصًا".

"حسنا إذَن، ألن تستطيع عائلتك إعدادَ طعامِ لمائدتين، ألا يمكن أن تكون الوليمةُ بجانبِ البئر؟، ادخل إلى قاعةِ الطعام، إنَّها تعجُّ بالضجيج، وإذا أردت قولَ بضعِ جملٍ للتهنئة فلن يسمعك أحد؛ يهدأ المكان حينما ينتهي دوام العاملين ويبدأون في تنظيفه، هل تستطيع الاستمتاع بطعامِك حينها؟"

فرقَع آه أر بلسانه وقال: "مَن يبع بطيخًا ويقول إنه مُرٌّ".

"إنه ليس مرًّا، وهذا ليس تباهيًا، والأطباقُ التي تُطبخُ الآن ليست جيدة، وقد تسلمت خطاباتِ ثناء كثيرة، لكني أعتقد أنَّ الوليمةَ التي تُعَدُّ في المنزل أفضل. وهناك عقبةٌ أخرى، قانونُ مطعمنا ينص على ألَّا يجلس أيُّ شخصٍ يعمل بالمطعم في وليمةٍ لأحدِ معارفه، تجنبًا لإساءة الفهم. فماذا عساني أفعل، أقفُ بعيدًا!"

"هه، بالطبع لا أريد دعوتك هذه المرة لشربِ كأس، وإنما لوليمةٍ باذخة، لو لم تشجعني في السنوات الماضية للتسجيل في القوى العاملة، ما كنتُ في وضعي هذا الآن".

"حسنًا، لتُعِد العائلةُ الوليمة. أو يمكنني أن أكلف طباخًا جيدًا يُعِدُّها لكم، طباخًا من الطرازِ الأول".

ضحك آه أر: "لا داعي، عددنا كثير، سيشترك الجميعُ في إعدادِ الطعام. لقد أصبحت الظروف جيدة، يا صديقي، يمكن لأيِّ شخصٍ أن يُعِدَّ طبقًا أو طبقين مميزين!".

Twitter: @ketab_n

"هذا أفضل، ليُعِد كلُّ شخصٍ طبقًا، وسأُعِدُّ أنا الحساءَ الأخير".

انحنى آه أر ضامًا يديه قائلاً: "لا داعي، لقد جرَّبته من قبل. لا تتأخر مساء يوم الأحد، سأكون بانتظارك".

غمر قلبي الفرح، وكنتُ أترقبُ تلك الوليمة. فقد سببتُ المتاعبَ لعائلته من قبل، واضطر والده إلى بيعِ البصل والثوم. وبجانب تلك البئر أيضًا، طلب مني الذهابَ لجلبِ القرع، واليوم سيقيمُ وليمةً هناك، حتى إذا لم أتناول طعامًا فسأشعرُ بالرضا!.

وفي اللحظة التي كنتُ فيها مطمئنَ النفس، دخل باو كون نيان قافزًا، كان يبدو راضيًا كذلك؛ فإذا كنتُ راضيًا وهو راضٍ، فسيكون العالم أكثر جمالًا!

هتف باو كون نيان بصوتٍ عالٍ: "أيها المدير، خذ"، ثم دسَّ في يدي بطاقةَ دعوةٍ حمراء ذاتَ رموزٍ ذهبيةِ اللون. قلَبتُ بطاقةَ الدعوة وألقيتُ نظرة: "الاحتفالُ بتأسيسِ جمعيةِ فن الطهي، ظهرَ اليومِ الثامن والعشرين (يوم الأحد) في حارة منزل رقم 54 نستقبلُ الشخصياتِ المشهورةِ من جميعِ الأوساط، نرحبُ بحضوركم". حسنًا، ها هي مأدُبةٌ أخرى! كان ردي على تلك الدعوةِ سريعًا للغاية، فقلتُ بلا تفكير: "أعتذر، لدي موعد يوم الأحد، سأذهب إلى حفلِ زفافِ أحدِ الأشخاص". قلت وأنا أضعُ الدعوةَ على الطاولة.

حك باو تشين نيان رأسه وقال: "متى موعدك؟".

"الساعة السادسة مساءً".

"ممتاز، لن يتعارض مع موعدنا، الساعة الثانيةَ عشرة ظهرًا".

التقطتُ الدعوةَ وألقيتُ عليها نظرةً أخرى، كان كلامُه صحيحًا، كان الموعدُ المحدَّدُ مطبوعًا بوضوح. كنت مضطرًا للتعبير عن رأيي: "لا يجوز،

Twitter: @ketab_n

فأنا لم أشارك في جمعيتكم، ولستُ شخصيةً من أي وسط، ولهذا حضوري ليس مناسبًا".

"أيها المدير، رفضُك لمنصبِ المديرِ العامِ للجمعية، سهَّلَ عملَنا للغاية، لأنَّ تركَ المنصبِ شاغرًا حلَّ مشكلةً كبيرة!، ولولا ذلك، لتشاجرنا وتفرقنا، ولم تكن الجمعيةُ لتنشأ اليوم!"

"أوه! هكذا الأمرُ إذَن، المشاركةُ نوعٌ من الدعم، وعدمُ المشاركةِ دعمٌ أكبر!، في الحقيقة، العلاقاتُ السببيةُ بين الأشياء حساسةٌ للغاية!"

"تعالَ أيها المدير، فلانٌ وفلانٌ سيأتيان، إذا لم تحضر لن يكون الأمرُ معقولًا. وهذا ليس مؤتمرًا، ولستَ بحاجة لإلقاءِ كلمة، إنه تجمعٌ لتناولِ الطعام، مأدُبةٌ شهيةٌ عامرة، إذا لم تحضر ستشعرُ بالندم".

"أنا لا أحب تناولَ الطعام".

"لا تأكل كثيرًا إذَن، تعرَّف على ما يجري، كنوعٍ من الدراسةِ المهنيةِ لك. ولأكن صادقًا، فهذه الوليمةُ لا تُقام كثيرًا. لقد أعطى تشو زي تشي توجيهاته، وجهزت كونغ بي شيا الأطباق، وانشغلنا لمدةِ أربعةِ أيامٍ متواصلة، وكلُّ الأعضاء يودون المجيء، لكننا لم ندعُ مَن سيعترض على الأمر. لا مفر، فكونغ بي شيا لها قاعدة، ألاّ يزيد عدد الأشخاص عن ثمانية، وبعد نقاشٍ وجدالٍ وافقتْ على استخدامِ الطاولةِ الدوَّارة، وأنتَ الشخصُ العاشر".

جعلني كلامه أتردد. فحينما ذهب يانغ تشونغ باو في الماضي إلى منزلها لتناولِ الطعام، سمعتُ أنَّه كان يأكل طوال اليوم، ولكنه لم يكن يدري ما الذي يأكله. وإذا لم أستغل تلك الفرصةَ المتاحةَ ولم أذهب لأعرفَ ما يجري، سأشعرُ بالندمِ طوال حياتي. بالإضافةِ إلى ذلك، إذا اشتركتُ أو لم أشترك فأنا أقدمُ دعمًا، وإذا كان هناك منصبٌ شاغرٌ مرةً أخرى، فلا أدري ما العواقبُ الوخيمةُ التي ستنتج عن ذلك!

"حسنًا، سأحض.."

Twitter: @ketab_n

"اتفقنا، لن أمر عليك، أنت تعرف المنزل رقم "54".

"نعم أعرفه، فما إن أغمض عيني حتى يمكنني لمسه".

كنتُ آلفُ المنزل رقم 54؛ كنتُ أمرُّ به كلَّ يومٍ حينما كنتُ في المرحلةِ الإعدادية، وأرى العديدَ من عرباتِ الركشا اللامعة تقف أمامه، وفي بعض الأحيان كنتُ أرى سيارة فورد تعبر من هناك، لتجعلَ الناس المارين يلتصقون بالجدار؛ واحدًا تلو الآخر. وكان ذلك البابُ الأسودُ مغلقًا طوال اليوم، وفي الباب توجد فتحة وعين. الفتحة كانت من أجل البريد، أمَّا العين فمُغطَّاةٌ بالزجاج، ويُقال إنَّها نوعٌ من العينِ السحرية، يمكن لمَن في الداخل رؤية مَن في الخارج بوضوح، ولا يمكن لمَن في الخارج رؤية مَن في الداخل، ولا يُفتح الباب للمتسولين مهما طرقوه. في ذلك الوقت كان عددُ المتسولين كبيرًا، وكان يقف أمامَ كلِّ بيت عدد من المتسولين تقريبًا. ولم أعرف قط ما يوجد خلف ذلك الباب، كنتُ أرى فقط اللبلابَ الذي يتسلقُ السور، وأشمُّ رائحةَ الورود المنعشة التي تنبعثُ كلَّ خريف. وتلك الورود تنشرُ رائحةً عَطِرَة الآن كذلك، وتحولتُ أنا من طفلٍ إلى "شخصياتٍ من كل الأوساط"، وذهبتُ إلى بوابةِ منزل 54 .

فُتح ذلك الباب الأسود على مصراعيه، وكان هناك شابة جميلة تقف في الداخل. كانت ملابسها عصرية، وتلبس حذاءً جلديًا بكعب، وبنطلونًا كلاسيكًا، وقميصًا رماديَّ اللون مُزينًا بدانتيلا بيضاء، كان القميصُ مشدودًا عند الخصر. ابتسمت وهي ترحب بي، فظننتُ أنَّها المسؤولة عن استقبال المدعوين، ولهذا أخرجتُ دعوتي بسرعة وأعطيتها لها. غطَّت فمها، وانحنت باحترامٍ شديد، ومدت ذراعها اليسرى قائلة: "تفضل بالدخول". ثم هتفت بصوتٍ مرتفع: "ماما، لقد جاء المدير قاول"

أوه..... صحيح، إنَّها ابنةُ كونغ بي شيا، التي تركها ذلك السياسي والمدرس. وبالطبع كان لا بد أن تكون قد كَبُرَت هكذا، فابنتي لديها أطفال.

Twitter: @ketab_n

التفتُ برأسي ونظرتُ إليها مرة أخرى، إنَّها حيوية مثل كونغ بي شيا، التي كانت في شبابها شخصيةً عظيمة!

جاءت كونغ بي شيا عبر ممر الزهور المرصوف بالحجارة. وما إن رفعت عينيَّ، لم أعرفها على الفور، فقد بدت كأنها أعطت وجهها لإبنتها، وأصبحت سيدةً متزنة. ولا يمكن لأحد أن يدعوها الخنفساء الضامرة الآن، زاد وزنُها، وامتلأ وجهها، وبدت أكثرَ شبابًا عمَّا كانت حينما وقفتْ أمام لجنة الحي لطلب العفو. كانت ترفع شعرها عاليًا، وأظهرت هذه التسريحة وجهها.. الذي كان مستديرًا بسببِ السمنة.. نحيفًا، ولهذا كان وجهها مريحًا لَمن ينظر إليه، كأن النساء حينما يزددن في الوزن يبدون أقصر. ولم تكن ملابسها مبهرجة، لقد فهمتْ مع الوقت جوهرَ التزين؛ فالمرأةُ الشابةُ والجميلة يكون مظهرها جيدًا في أي ملابس، كما أنَّ الماكياج الخفيف يكون مناسبًا. وإذا أرادت السيدة كبيرةُ السن أن تتزين، فيجب أن تُعبِّر ملابسُها بشكلٍ أساسي عن نوعٍ ما من المظهرِ الشخصي والطباع ليس إلاَّ. ولهذا كانت ملابسُها بسيطة، بذلة زرقاء على الطراز الغربي، مصنوعة بدقة، من قماشٍ فاخر، ملائمة لسنِّها وجسمها.

رحبت بي ترحيبًا حارًا، فامرأةٌ شديدةُ الحرصِ مثلها، من الصعب أن تنسى الأمورَ الصغيرة.

"أيها المدير قاو، خِفت ألَّا تأتي. أوه، كَبُرْت في السن أيضًا، هل أصبحت أبًا؟".

"لا، أصبحت جدًا".

"جيد، الأمرُ سواء. ادخل بسرعة، نحن بانتظارك لنبدأ الوليم.."

سرت معها ليظهر أمامي فناءٌ منظمٌ يوحي بالهدوء والذوق والسليم. كانت الأشجارُ والزهورُ والحشائشُ والبامبو والأحجارُ مصطفةً على ثلاثةِ

Twitter: @ketab_n

جوانب من بركةٍ مساحتُها نصف مو(*)، يمتد جسرٌ حجريٌّ مقوَّس، يوصل إلى ثلاثِ غرف. ولعلَّ مكتب ذلك السياسي والمعلم كان هنا في الماضي، وقد كانت الغرفُ فسيحةً مضيئة، بها عدةُ نوافذ أرضيةٍ طويلة مصطفة بمحاذاةِ المياه. كانت جميعُ النوافذِ مفتوحة، ويمكنك أن ترى عبرها بوضوح، كانت الطاولةُ الكبيرةُ في الجانب الشرقي، أما الضيوف فكانوا جالسين بشكلٍ مؤقتٍ في غربِ الغرفة.

جاء باو كون نيان عبر الجسرِ الحجري، وعرَّفني بالضيوفِ فردًا فردًا، كان من بينهم صديقان قديمان لتشو زي تشي اشتريت لهما بعضَ الوجبات الخفيفةِ في الماضي. وكان من بينهم أيضًا قائدي القديم، الذي كنتُ أستمعُ إلى تقاريره في شبابي. وكان منهم ثلاثة لا أعرفهم، شخصٌ لا يتحدث كثيرًا، واثنان يتحدثان بمرحٍ وخفةِ دم، ويظهر من حديثهما نوعٌ من الانتهازية.

كان تشو زي تشي يرتدي بذلةً قديمةً على الطراز الغربي، وربطةَ عنقٍ عتيقة، تحت صيديري البذلة. لم أكن أدري من أي زاويةِ صندوقٍ أُخرجت تلك البذلة، فقد كانت رائحةُ النفتالين تنبعث منها، ولكن لم يبدُ مظهره مضحكًا وهو يرتديها، بل على العكس جعلني أشعر نحوه بالاحترامِ والمهابة. هذه البذلةُ مألوفةٌ للغاية، أين رأيتها من قبل يا تُرى؟، نعم، أثناء دراستي في المرحلةِ الثانوية، كان المعلمون نوعين. الأول يرتدي الرداءَ الأزرقَ الطويل، والثاني يرتدي البذلةَ على الطرازِ الغربي. فمعلمو اللغاتِ كانوا يرتدون الرداءَ الطويل، أمَّا معلمو الفيزياءِ فكانوا يرتدون البذلات. كان فنُ الطهي ينتمي إلى فئةِ العلومِ والتكنولوجيا، وارتداءُ الرداءِ الطويل سيبدو عتيقَ الطراز، وارتداءُ زيٍّ موحدٍ لن يكون فريدًا، أما ارتداءُ البذلاتِ الجديدةِ فيُظهر الشخصَ كأنه ليس لديه انتماء، وارتداءُ بذلةٍ قديمة، يبدو

(*) 1مو يساوي نحو 666.7 متر مربع.

Twitter: @ketab_n

ممتازًا!؛ لأنها تُظهر الشخصَ كعالمٍ عجوز عاش لسنوات كسيرَ الفؤاد، ثم اهتم به الناس واكتشفوه للتو!، وبالتأكيد كانت كونغ بي شيا هي السبب في ارتدائه لتلك الملابس، فملابسه كانت دائمًا مهترئةً وقديمة.

لم يرتدِ تشو زي تشي البذلات لفترةٍ طويلة، ولم يكن يتحرك بشكلٍ طبعي، وشرع يصطدمُ بالكراسي أثناء مروره، ودسَّ منشورًا في يدي. أخذتُ المنشورَ وجلستُ أمام قائدي القديم، وشعرتُ بالتحفظِ الشديد. حينما كنتُ في فرق العمل في بدايةِ فترةِ التحرير، قضيتُ مع رفيقي القائد ذاك فترةً قصيرةً تعارفنا فيها، وكان انطباعي أنه شخصٌ رصينٌ ومتزن، ينشد الانضباط، كان شخصًا يعارضُ المثقفين بعضَ الشيء. وكنَّا نحن "البرجوازيين الصغار" نتظاهر أمامه بالانضباطِ والتحفظِ الشديدين. وحينما قابلته في هذا النوعِ من التجمع، أحسستُ بالاضطرابِ الشديد، ولم تسعفني الكلمات، ولذلك شرعت أقلِّبُ ببطءٍ المنشورَ الذي أحمله في يدي.

"شياو قاو".

"لا"

بعد أن ناداني بشياو قاو، أدرك أنني كَبُرْت في السن، فقال على الفور: "أيها العم قاو، اقرأ هذا الكتابَ بدقة، واستفد من خبراتِ الناس."

"حسنا، سأقرأه جيدًا".

"لا يمكنك الاعتماد على قليلي الخبرةِ الآن، يجب أن تتعمق بنفسك في الدراسة".

"هذا صحيح، لقد أخطأتُ بخصوصِ هذا الأمر في السابق".

"من الجيد أن تعرف خطأك، لم يفتْ الآوان بعد".

أومأتُ برأسي موافقًا، وأكملتُ قراءةَ المنشور، وأدركتُ أنَّ محتواه هو ما ألقاه تشو زي تشي، وعدَّله باو كون نيان، ولم يكن هناك شيءٌ جديد، بل

Twitter: @ketab_n

كان المحتوى منسوخًا من بعضِ وصفاتِ الطعامِ الرائجة، كما شابته بعضُ الأخطاء، ولم أعرف أكان الخطأ من النسخ أم من الطباعة. رفعت عينيَّ ونظرتُ إلى تشو زي تشي، وأردتُ أن أسأله سؤالًا، إلاّ أنَّه تحاشى النظرَ لي، ومد يديه إلى الأمام، كأنه يهش مجموعةً من البط ودعا الضيوفَ لبدءِ الوليمة.

دخل الضيوف واحدًا تلو الآخر، وهم يفسحون لبعضهم البعض، ويتصرفون بأدبٍ ولباقة، ودفعوني للجلوس أمام قائدي.

عندما اتجه المدعوون إلى شرقِ الغرفة، أصيبوا بالدهشة فجأة، فقد أذهلهم منظرُ المائدة. كان على المفرش الأبيض المطرز طقمٌ من أدواتِ الطعامِ الخزفيةِ المنقوشة، وكان النقشُ دقيقًا بارعًا، والحواف ذات اللون الأزرق الفاتح مزينةً بنقوشٍ شفافة خفية، كأنها مُجوَّفَة، وكأنها تقطرُ ماء، وتُطلق وميضًا. لم يكن هناك زهورٌ على الطاولة، بل كان هناك اثنا عشر طبقًا من المقبِّلاتِ الباردة تشبه اثنتي عشرة زهرةً منعشة، وكانت الأطباقُ متعددةَ الألوان. فمقبِّلات مثل الروبيان المقلي، شرائحِ فخذ الخنزير، فول الصويا مع الفلفل الأخضر، وشرائحِ الدجاج الباردة، كانت زاهيةَ الألوان في الحقيقة. أمَّا السمكُ المدخن، واللحمُ ذو النكهات الخمس، وسمكُ البومفريت فلم تكن ألوانها زاهية، ولهذا زُيِّنت بجميعِ أنواعِ الخضارِ والفاكهة، هناك المزيَّنة بالزعرورِ الأحمر الطازج، والأخرى المزيَّنة بالبرقوقِ الأخضر. ولم يكن طبقُ سمك البومفريت في العادة يُقدَّم على المائدة، فقد كان نوعًا من الإنتاجِ الثمينِ لمدينةِ سوجو، ولم يكن متوفرًا لسنوات كثيرة، وتقديمه يُعتَبرُ أمرًا نادرًا. كانت كونغ بي شيا تبتكر طرقًا عدة لتقديمِ الطعام، فقد كان طبقُ السمك مزينًا بشرائحِ جذورِ اللوتسِ الطرية، لتزيين الطبق، ولأنَّ السمك مالحٌ للغاية، كانت جذورُ اللوتس تخففُ من ملوحته.

كانت الاثنتا عشرة زهرةً تحيطُ بوردة كبيرة، كانت هذه الوردةُ محاكةً بخيوطِ الكروشيه، ولعلَّها من صنعِ ابنةِ كونغ بي شيا، وبعد قليل ستوضعُ

Twitter: @ketab_n

الأطباقُ الساخةُ داخلها. لتبدو المائدةُ كزهرةٍ ضخمة، كزهرةِ زنبق، كزهرةِ لوتس، وكزهرةِ عبادِ شمسٍ كذلك.

أفاق المدعوون من ذهولِهم، وتنهدوا مُعجبين:

"آه....."

"....."

ولم نكد نبدأ الوليمة، حتى تعرضتُ للانتقاد: "أيها العم قاو، انظر، هذا ما يُسمَّى "معرفة"! انظر إلى مطعمكم، يعج بالفوضى".

لم أنطق بكلمة، بل تفحصتُ ما حولي، والتفتُ إلى ظلالِ الأشجار التي تتراقصُ مع النسيم، ولمعانِ المياهِ والضوءِ عبر الرواق، ورائحةِ الزهور المنعشة، وكان هناك عصفورٌ يزقزقُ في الفناء، وخطرَ ببالي أنَّ ذلك السياسي والأستاذ كان يجلسُ في الماضي في غرفةِ المكتب.....

مد تشو زي تشي يده إلى الأمام، ودعا الناسَ لبدء الأكل. وفي الوقتِ نفسه كان يعدل ربطةَ عنقه، ويفتتح حديثه قائلاً:

"أيها الضيوفُ الكرام، أود منكم اتباعَ الإرشادات التي أمليها عليكم، فأيُّ نبيذٍ تشربونه، وأيُّ طبقٍ تتناولونه، له أسلوبٌ في التناول. وأوصيكم بعدم الانقضاضِ على الطعام، خاصةً في البداية، يجب أن تتذوقوا قليلاً من كل طبق، فالجزءُ الأشدُّ إثارةً لم يأتِ بعد، وأتمنى أن تدخروا شهيتَكم قليلاً....."

انفجر الضيوفُ ضاحكين، وبدوا فرحين مبتهجين.

".....بالنسبةِ للطعام، الكلُّ يمكنه تناوله، ولكن يوجد نوعٌ من الناس يأكل الطعام ولا يهتم بمذاقه، ومعرفةُ مذاقِ الطعام صعبةٌ للغاية كمحاولتك التعرفَ على شخص، تحتاج إلى الكثيرِ من الخبرة. بعد قليل سأقوم بتعريفكم على الأمر، ولكم حريةُ الانتقادِ والنصح. تفضلوا، فلتأتِ بالنبيذ".

Twitter: @ketab_n

وعلى الفور فتح باو كون نيان دولابَ الخمور، وأخرج طاقمًا من الكؤوس الزجاجية الطويلة، وقنينتين من خمر تونغ هوا. لم أكن بحاجة إلى توضيحٍ من تشو زي تشي، فعند بدايةِ تناولك للطعام لا يُحبَّذُ شربُ النبيذ الأبيض، لأنه يكون لاذعًا ولن تشعر بمذاقِ الطعام. لكنني أردتُ تناولَ النبيذِ الأبيض، وقد تعلمت أن أشرب الخمرَ حين أشعرُ بالضيق، أو الكآبة، أن أشرب نبيذًا أبيضَ قويًا 64.

صب باو كون نيان الخمرَ للضيوف، فتحولت الكؤوسُ في الحال إلى أحجارٍ كريمةٍ حمراء اللون، وكان اللونُ الأحمرُ القاتم يُطلقُ وميضًا يثيرُ المرء. كانت كؤوسُ الخمر مخروطيةَ الشكل، وأعتقد أنَّ هذه الكؤوس التي تبدو ثمينة مصنوعةٌ من الزجاج.

وبما إنَّ باو كون نيان هو نائبُ الرئيس، فقد كان عليه بعد صب الخمر أن يلقي عدةَ جُمل، ولم يكن أداؤه مناسبًا حينما أراد الإشادةَ بتشو زي تشي، بعدها رفع أعوادَ الطعام قائلاً: "تفضلوا أيها السادة، لا تخجلوا....."

ولم يكن تشو زي تشي راغبًا في الحفاظ على ماءِ وجهِ الآخرين، وقال متظاهرًا بالجدية: "لا، لا تبدأوا وليمةً عامرةً بالهجوم على المقبِّلات حتى لا تشبعوا، المقبِّلات وجباتٌ خفيفة، تؤكلُ ما بين طبقين رئيسين." قال ذلك ثم مد رأسه خارج النافذة، وهتف بصوتٍ عالٍ: "أحضروا الطعام!".

ومع هتافه العالي، تعلَّقت نظراتُ الضيوفِ بالجهةِ الجنوبيةِ من البركة، "قديمًا لا يقرب الأمير المطبخ(*)، بين المطبخ والمكتب بحيرةٌ زمردية".

رُفِع الستار: كانت ابنة كونغ بي شيا، تلك الفتاةُ رائعةُ الجمال تحمل صحنًا، وتختفي تارةً ثم تظهر تارةً بين البامبو، ثم تختفي لبرهةٍ وتظهر لبرهةٍ حتى وصلت إلى أول الجسر الحجري المقوَّس. كانت خطواتُها

(*) من أقوال الفيلسوف الكونفوشي منشيوس (مينغ زي).

Twitter: @ketab_n

رشيقة، وحركتُها خفيفة؛ الفتاة أعلى الجسر، الظلُّ في الماء، الصحنُ في يدها، والطعامُ في الصحن، كأنَّ نسيمًا عاليًا هبَّ على الضيوف، وكأنها (فتاة من الفتيات العصريات اللواتي يتهادين بخفة ورشاقة في المطعم...)! لم أكن أتوقع أنَّ تشو زي تشي اللعين سيدبرُ مشهدًا جميلًا كهذا المشهد، وعلى الرغم من أنَّ الصحن كان يحتوي على خبز الذرة، فإنك ستظن أنَّ هذا الخبزَ قادمٌ من قصرِ الإمبراطور، كالذي تناولته الإمبراطورةُ الأرملةُ تسيشي من قبل!

وبالطبع لم يكن في الصحن خبزُ الذرة، فبعد أن رُفِع الغطاء، أُصيبَ الجميعَ بالدهشة، حين رأوا عشرَ حبات من الطماطم الحمراء موضوعةً في الصحنِ الأبيض. وقد أُصبتُ بالذهولِ كذلك، فطبقًا لتقاليدِ تقديمِ الطعامِ في سوجو، يجب أن يكون الطبقُ الأولُ ساخنًا. قطعُ الدجاجِ المقلية، شرائحُ السمك، الروبيانُ المقلي وغيرها، ودائمًا يكون الطبق الأول هو الروبيان المقلي، ولم يحدث قط أن رأيت الطماطم تُقدَّمُ أولًا!، هل تُعتبر حباتُ الطماطمِ تلك خضارًا أم فاكهة؟

تظاهر تشو زي تشي بالهدوء، ووضع حبةَ طماطم في صحن كلٍّ منا، ثم هتف وكأنَّ الأمرَ تحول إلى لعبة قائلاً: "ارفعوا الغطاء!"، وفي الحال رفعنا غطاءَ حبة الطماطم: كانت محشوة بالروبيان المقلي!

دب الحماس في الجميع، ورفعوا الغطاءَ، واحدًا تلو الآخر.

شرح تشو زي تشي قائلاً: "يُحضَّرُ الروبيانُ المقلي في البيت، وليس فيه شيءٌ فريد. وعدا اختيارَ المقادير ومدةَ الطهي لم يطرأ أي تغيير على طريقة إعداده. ومنذ سنوات قليلة ظهر الروبيان المقلي المُحضَّر بصلصةِ الطماطم، لكنه كان لاذعًا، ومذاقه مذاقَ الطماطم. أما الآن فعندما تحشو الطماطم بالروبيان، فلا يُكسبه ذلك مظهرًا جميلًا فحسب، بل مذاقًا لذيذًا أيضًا، جربوها. إنَّ حبةَ الطماطم ما هي إلاَّ صحن، فلا تأكلوها مع الروبيان.

Twitter: @ketab_n

لم أكن أشعر سوى بالإعجاب، فقد كنتُ ولسنوات عديدة أتطلع إلى تقديم المزيد من الروبيان المقلي إلى الناس، لكن لم يخطر ببالي أن أقدم الطماطمَ المحشوةَ بالروبيان. كان سعرُ الطماطمِ مرتفعًا في فصل الخريف، وسيكون من المؤسف رميها، أردتُ بالفعل التهامَ كلِّ شيءٍ حتى الصحن.

أوه، كان الأمرُ بالنسبةِ لي عكس ما قال تشو زي تشي، وأظن أنَّ ذلك الروبيان له مذاقٌ خاص، كونه يحمل رائحةَ الطماطم المنعشة وطعمَها الحامض. وقد كان دينغ صاحبُ الرأسِ الكبير محقًا، فحاسة التذوق لدى الأشخاص متقاربة، وليس كما قال تشو زي إنَّ الشخصَ يمكنه أن يأكل لكن لا يمكنه التعرف على المذاق. يكمن الفرق في أنَّ بعضَ الأشخاصِ يتناولون الطعام ولا يمكنهم وصفَ مذاقه بشكلٍ دقيق، فيعبِّرون بشكلٍ عام: "آه، إنَّ له مذاقًا لا يمكن وصفه!" وكانت عظمةُ تشو زي تشي تكمن في قدرته على وصفِ المذاق، وعلى الرغم من أنَّ وصفه اللامترابطَ يقتربُ من التباهي، فإنَّ التباهي هو أحد مظاهر الوصف. فإذا لم يتباهَ وسط هذه الفرحة العامرة والمتعة، لكانَ من الصعبِ عليه إزاحةُ تلك التعابيرِ البليدةِ عن الوجوه!

كانت "الحورية" تسيرُ ذهابًا وإيابًا على الجسرِ الحجري، وكانت الأطباقُ الساخنةُ توضع تباعًا على المائدة. لا أتذكر بوضوح كم عددَ الأطباق، لكنني أعرف أنَّه بعد ثلاثةِ أطباقٍ ساخنة يجب تقديمُ طبقٍ حلو، وقد قُدِّمت ثلاثةُ أطباقٍ إلى الآن: حساء بذورِ اللوتس والمكسرات الحلوة، كرات الأرز الدبق، وفاكهةُ الجورجون المطهوة في نشا جذور اللوتس.

كان تشو تشو زي تشي لا يزال يعرفنا بتلك الأطعمة، ولم يعد ذلك التقديمُ يثير اهتمامي، وكانت مقدمته رائعةً للغاية، لكن ما تبع ذلك من تفاصيل كان عاديًا؛ شرائحُ الدجاج المطهوة ببطء مع الحليب والبيض، كراتُ الدجاج، سمكُ الماكريل بالطماطم، كانت قائمةُ الطعام في المطعم تضم هذه الأطباق.

Twitter: @ketab_n

لم يتوقف الضيوف عن إبداءِ إعجابِهم والثناءِ على الطعام:

"أيها العم تشو، من أين لك بهذا العِلم؟"

"من الصعب أن أحدد، فهذه المعرفةُ لا تأتيكَ من ميراثِ أساتذتِك، أو من الكتب، بل هي من جمعِ الخبراتِ طوالَ سنواتٍ كثيرة".

"أيها العم تشو، لقد كانت حياتُك رائعة، نحن عاجزون عن المشي على خطاك".

"أبدًا، كلُّنا سواء كلُّنا سواء، لقد قضيت أيامًا شاقةً خلال الثورةِ الثقافيةِ وسنواتِ المجاعةِ الكبرى".

"انس ذلك، لقد مرت تلك الأمور، كُلٌ كُلٌ!"

"هذا صحيح، ستأتي الشيوعيةُ في المستقبل، ويمكننا أن نأكل طعامًا مثل هذا كل يوم!"

سمعتُ قرقرةَ بطني، إذا تناول الناسُ مثل هذا الطعام كلَّ يوم، فمَن سيعمل، الروبوتات؟، من الممكن ذلك، لكنك لا تستطيع أن تأكل هذا المقدارَ كلَّ يوم، فلم يُخترع الجيلُ الخمسون من الروبوتاتِ بعد!

"أيها العم قاو".

"....."

"لماذا لا تقل شيئًا، ألم تكن على علمٍ بموهبةِ تشو زي تشي سابقًا؟

"كنت أعرف، كنت أعرف منذ زمن".

"إذَن لِمَ لَمْ تجعله مدربًا، وتُحسِّن من وضعِ مطعمكم".

"دعوته..... دعوته من قبل، لقد دعوناه من قبل لإلقاءِ محاضرة".

"لقد كان هذا مؤقتًا، ولم يكن تحت مسمًّى رسمي".

Twitter: @ketab_n

هدأ المدعوون فجأة، وتركزت نظراتهم نحوي. انتبهتُ انتباهًا شديدًا، فأيُّ صفقةٍ يودون إتمامَ مناقشتها في مأدُبةٍ عامرةٍ كهذه!

"مُسمَّى.....هذا المُسمَّى من الصعب تحديده".

"وهو مختصٌّ كذلك!".

"مُختصٌّ في ماذا، ماذا تقترحون؟" انتظرتُ إجاباتهم. أنتَ لست عالمًا، أو أديبًا، أو فنانًا، ما اختصاصك إذَن.

"تناولُ الطعام....." لم يكن مناسبًا، و"خبيرٌ في الطعام" تُعتبرُ شتيمة".

"....."، لم يكن لقبُ خبيرٍ في تناولِ الطعام مناسبًا، فمَن لا يمكنه تناول الطعام؟

رفع باو تشين نيان أعوادَ الطعامِ وقال: "لدى الأجانب لقب لذلك، يُسمونه "الذوَّاقة"!"

"حسن!"

"حسن!"

"جيد!"

"الذوَّاقة، الذواقَّة!"

"تعالوا، لنشرب كأسًا في صحةِ ذوَّاقتِنا".

كان تشو زي تشي مزهوًا بما حققه، ولم يتمالك نفسه عن فتحِ تلك البذلةِ الباليةِ التي كان يرتديها، وتركَ مقعدَه ورفعَ كأسه، ودارَ حول الطاولة، وقرعَ كأسَه بكأسي بالذاتِ بقوة، وكاد يكسر زجاجَ الكأسِ الرقيق. نعم، لقد وصلت مهنتُه إلى ذورتِها؛ لقد أمضى حياتَه وهو يفتشُ عن وجباتِه بمشقةٍ وتعب، وعلى الرغم من أنَّ أحدًا لم يكن يهتمُ بذلك، وحتى لو كان ثمة شخصٌ يعارضه، فقيمةُ تشو زي تشي الحقيقية اكتُشِفت في الخارج!

Twitter: @ketab_n

كنتُ أمقتُ ضيقَ أفقي، وكيف أنني هُزِمت على يد باو كون نيان. ولم يكن بمقدوري سوى إضافة "تيك آواي"، ولم أكن مستعدًا لأن يكون "الذوَّاقة" في الأمر كذلك. عفريتُ الطعام، الشَرِه، وغيرها من الألقاب التي عفا عليها الزمان، الذوَّاقة!، كان لقبًا ذا وقعٍ لطيفٍ على الأذن، يمكن أن يحقق أرباحًا طائلة، مثل الطعام السريع بالضبط. وإذا ما أُنشئت جمعيةٌ عالميةٌ للذوَّاقين، فيمكنُ لتشو زي تشي أن يكون نائبَ رئيسِ الجمعية، والرئيسُ يمكن أن يكون فرنسيًا، ولكن منصبَ نائبِ الرئيس سيكون من نصيبِ الصين بكلِّ تأكيد!

وفي غمرةِ فرحِهم التهم الضيوفُ الطبقَ العاشر، في تلك اللحظة دخلت كونغ بي شيا، وسألت الجميع عن رأيهم في الطعام. شكرها الضيوفُ، واحدًا تلو الآخر، ودعوها لشربِ كأس. نهضتُ لأملأ لها الكأس، ورفعتُ كأسي قائلاً:

"أشكرك يا زوجةَ معلمي، إنَّ أطباقك مُعَدَّةٌ بشكلٍ متقن، شكرًا لك، وشكرًا لابنتك كذلك، أرهقناكما معنا." لم تترك كونغ بي شيا لديَّ انطباعًا جيدًا، ويجب أن أعترف، أنَّها ماهرةٌ في الطهي، كطباخٍ من الدرجةِ الأولى، ويجب أن تكون هي رئيسَ جمعيةِ الطهاة أو نائبَ الرئيس. التباهي بكلِّ شيءٍ في العالمِ أيسرُ من عمله، والذي يأكل يرى نفسَه أفضلَ من الذي يطبخ.

سُرَّت كونغ بي شيا للغاية وقالت: "لم أفعل شيئًا يستحق الذكر، ليس بالأمرِ السهل أن أحظى بثناءِ المدير." رفعتْ كأسَها ورسمتْ في الهواء دائرةً كبيرة: "أخشى أن أكون قد قصَّرت في واجبِ ضيافتِكم، لم أكن راضيةً عن الأطباق التي طهوتها، كما أنَّ براعمَ البامبو الشتوي غيرُ متوفرةٍ الآن، فاضطررت إلى استخدام المعلَّبات".

"آه، الطعامُ لذيذٌ للغاية".

Twitter: @ketab_n

"هيا هيا، لنشربَ كأسًا في صحةِ زوجةِ الذوَّاقة!"

بعد شرب النخب، بدأ باو تشين نيان في رفع الكؤوس، ولا تحسبن الوليمةَ قد انتهت، لا يزال الوقتُ مبكرًا، ستكون هناك دورةٌ أخرى الآن، وسيتم تغييرُ طاقمِ الصحونِ والكؤوس.

أحضر تشو تزي تشي إبريقَ شايٍّ أرجوانيًا من فخار ييشينغ، يشبه ثمرةَ الخوخ، بمقبضٍ على شكلِ ورقةِ شجر، مُزيَّنًا بنقوش. وأحضروا خمرًا من نوع آخر كذلك، جرَّةً صغيرةً من نبيذِ الأرز، وخمر (هوا تياو). ولعلَّ المرحلةَ التاليةَ من الوليمةِ ستكون أكثرَ إثارة، ولذلك وجبَ تقديمُ خمرٍ أشدَّ تركيزًا. وخمرُ شاو شنغ دافئة، غيرُ لاذعة. ألقيتُ نظرةً على رفِّ الخمور، ورأيتُ أنه لا تزال هناك زجاجتان من (وو ليانغ يي)، ولعلَّهما ستُقدمان قبلَ تناولِ الحساء. وخطر ببالي أمرٌ ما، فلم أكن أدري مَن دفعَ تكاليفَ هذه الوليمة، هل هي من أموالِ تشو زي تشي، أم من نفقاتِ الدعاية؟

وبعد أن استأذنتْ كونغ بي شيا، رُفع الستارُ عن المرحلةِ التاليةِ من الوليمة، فقد تتابعت الأطباقُ الواحدُ تلوَ الآخر، الأطباقُ الساخنة، وأطباقٌ رئيسة، وحلويات: (سمكةُ اليوسفي بالصنوبر على شكل سنجاب)، (فخذُ الخنزيرِ المشوي بالسكر)، (حساءُ الأرز المحمص)، باوزي (فطائرُ مطهوةٌ على البخار)، (جياوزي محشوةٌ بصدورِ الدجاج)..... وطبقُ (البطات الثلاث) الذي دفعَ بالوليمةِ إلى الذورة!

وما يُسمَّى بـ "البطات الثلاث" عبارةٌ عن حمامة مدسوسة داخلَ دجاجة، والدجاجةُ مدسوسةٌ داخلَ بطة، وحينما تُطهى تبدو كبطةٍ كاملة، ثم تُوضع البطةُ داخلَ صحنٍ عميق. ويُزيَّن الصحنُ ببيضِ الحمام، كأن الحمامةَ وضعت البيضَ منذ قليل.

لم يتوقف الضيوفُ عن الثناءِ وإبداءِ إعجابِهم:

"يا عم قاو."

Twitter: @ketab_n

"....."

"انظر، أليسَ هذا قمةَ الإبداع؟".

"بالطبع".

"وبسببِ هذه المهارة، لم يكن بإمكانه أن يعمل معلمًا في مطعمكم، وأن تعطيه كلَّ شهرٍ ثمانين في المائة من الأرباح".

أدركت الأمر، وأخشى أنَّ هذا هو المغزى من وليمةِ اليوم، ولهذا واجهتهم قائلًا: "لا أستحقُ كلَّ ذلك، فمعبدنا صغير، لا يتسع لبوذا الكبير".

"معبدكم ليس صغيرًا، فلتنظر إلى فراسةِ صاحبه....."

ولحسن الحظ أنقذ طبقُ "البطَّات الثلاث" الموقف، بعد توقفِ أفواههم عن الحديث، لأنَّه ليس بمقدروهم استخدامَ وظيفتي الفمِ في آنٍ واحد.

نظرتُ إلى الساعة، ورأيت أنَّ تلك الوليمةَ استمرت لمدةِ ثلاث ساعات، وما زلنا في انتظار أن نشرب خمرَ وو لِيانغ يي (كنتُ أود شربَه بشدة)، ولا يزال هناك حساءٌ لذيذٌ ختامًا لتلك الوليمة، وكان هناك كمثرى وكاكايا، لكنني لا أستطيع البقاءَ إلى نهايةِ الوليمة، فبعد انتهائها سيشربون الشاي، وهنا سيُلَفُّ الحبلُ حول عنقي.

"في الواقع أنا أعتذر منكم، فلدي موعدٌ بعد ذلك، ولا أستطيع البقاء. أشكرك يا سيد تشو، أشكركم أيها الضيوف، أشكرك....." لم أتوقف عن إبداءِ شكري، وأنا أتراجع إلى الخلف، تراجعتُ خمسَ خطواتٍ ثم التفتُ مغادرًا، واتجهت مهرولًا مباشرةً إلى الجسر الحجري. وأثناء عبوري الجسر التفتُ للخلف، لأرى الضيوفَ في حالةِ ذهول.

ما فعلته اليوم لم يكن تصرفًا لبقًا، ولم يكن ينم عن احترام، وبدوت كأنني أهرب. وكانت كونغ بي شيا، ستشعرُ بالحزن إذا لم ألقِ عليها التحية، فهي شديدةُ الاعتزازِ بكرامتِها.

Twitter: @ketab_n

كانت كونغ بي شيا وابنتها مشغولتين، وما إن سمعتا أنني سأغادر، حتى شعرتا بالأسف: "آي، لعلك لم يعجبك ما أعددته، ولم يناسب الطعام ذوقك!"

"....، إنكِ ماهرةٌ في الطهي، من فضلك تعالي إلى مطعمنا في أي وقت لإلقاءِ دورسٍ وتبادل الخبرات".

ضحكت كونغ بي شيا قائلة: "أيٌّ تبادلٍ للخبرات، أنتم تجيدون إعدادَ تلك الأطباقِ في مطعمكم، المشكلةُ تكمن فيٍ أنكم لا تملكون وقتًا فائضًا لتُعِدُّوا الطبقَ بدقة، يجب الاستعداد قبلها بأيام....آي، ألا يمكنك الانتظار قليلاً، ما يزال هناك حساءٌ أخير".

"أعرف....." فجأة تذكرت أمرًا ما فقلت: "أيها السيدة تشو، لماذا لم يُقدم طبقُ "القرع المجوف" اليوم؟ لقد قال لي السيد تشو حينما كنا ذاهبين لإحضارِ القرع، أنَّه بإمكاننا تحضيرُ طبق "القرع المجوف"، وله رائحةُ الحقل!

انفجرت كونغ بي شيا ضاحكة: "إنه يتفوه بالترَّهات، فهذا الشخص يشبه مبولةً لها فمٌ بارز!"

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

12 ـ الشيكولاتة

خرجتُ من المنزل رقم 54 متجهًا إلى الغرب، ناحية منزل آه أر. يا إلهي، كان لا يزال هناك وليمةٌ أخرى في انتظاري!، لم أكن راغبًا في تناولِ أيِّ شيء، وكان من الصعب هضمُ تلك "البطات الثلاث"، إلَّا أنَّ ذلك الأمر يستحقُ التأمل. ومع ذلك أردت أن أشربَ بضعَ كؤوسٍ برفقة آه أر ووالده، وبالطبع سأشربُ نبيذًا أبيضَ قويًا 64 فحينما تشربه تشعرُ كأنَّ خيطًا ساخنًا قد سرى في جسمك إلى معدتك، وتتنهد تنهيدةً عميقة، وتتكشف بهجةُ العالم ونشوتُه اللامتناهيةُ داخلك.

كان الخريفُ بالنسبة لكلِّ مدينة، هو اللونَ الذهبي. ولم تكن سوجو استثناءً، كان الجو منعشًا، معتدلًا، وكانت الباحةُ تعبقُ بين حينٍ وآخر برائحةِ الزهورِ العَطِرَة. كانت السماءُ فوقَ الحارةِ الصغيرة نادرًا ما تكون زرقاءَ صافيةً هكذا، نادرًا ما تتجمع فيها سحبٌ بيضاء. ولم يكن هناك الكثيرُ من الناس الغادين والرائحين يوم الأحد، أغلبهم مشغولون في واجباتهم المنزلية، ومن بينها أولاً طهي الطعام، فقد كان البخارُ ينبعثُ من النوافذِ المُطلَّةِ على الحارة، ويمكنك أن تسمع طشيشَ الخضارِ في الزيت.

Twitter: @ketab_n

ومن المنزل رقم 54إلى منزل آه أر، كان لا بد أن أجتازَ منزلي القديم، الذي بدا كأن لا شيءَ تغيَّرَ فيه. كان منزلاً على طرازِ مباني شانغهاي القديمة، الجدران البيضاء، وخمس غرفٍ من طابقٍ واحدٍ مصطفة بجوار بعضها البعض، وكان منزل تشو زي تشي ذو الطراز الغربي هنا. وبدا وكأنني أرى عربةَ آه أر تقف أمام البوابة، وتشو تزي تشي يخرج مرتديًا الثوبَ الطويل، ويصعد متبخترًا إلى العربة، ويرن الجرس تحت قدمه، ثم يذهب إلى (تشو هونغ تشينغ) لتناولِ الشعرية. لقد ظلَّ طوال أربعين عامًا تجسيدًا للطعام، كأنه عفريتٌ التفَّ حولي، وقررَّ مسارَ حياتي، وحدَّدَ بالصدفةِ وظيفتي. كنتُ أمقته، وأعارضه، وأود أن أبتعد عنه. لكنني مهما عارضته لا يلين، ومهما أبعدته لا يبتعد، وفي النهاية يريد أن يكون معلمي، وأن أعطيه في الشهر مائةً أو أقل. كم تكون المائةُ أو الأقلُ يا تُرى؟، إذا قسمت العددَ على اثنين، سيكون مرتبه مائةَ يوان بالضبط!، وإذا كان يانغ تشونغ باو مَن سيعمل معلمًا، كنتُ سأضيف إلى راتبهِ عشرين يوانًا بالإضافةِ إلى المائة، كما أنَّ الراتب لا يتضمن العلاوات. ولكن مَن تشو زي تشي هذا، أكثرُ الزبائنِ الميسورين لا يكونون سوى تابعين، وبإمكانه دفعُ الناسِ إلى البذخ، ولكن ليس له علاقةٌ كبيرةٌ بعملنا. أيها الذوَّاقة، اذهبْ واستخدمْ علاقاتك الخاصة، ما دمت ستأتي أمامَ بوابةِ المعبد، فلا تظن أنَّ باستطاعتَك الدخول!

وما إن وصلت إلى منزل آه أر، حتى تلاشى غضبي شيئًا فشيئًا. كان هذا عالمًا سعيدًا، بلا انتقام، بلا زيف، ولا يقتربُ من البذخ. كان الناسُ مزدحمين بجانب البئر، يقضمون بذورَ البطيخ، ويأكلون حلوى الزفاف، وقد جاء أفرادُ عائلتي جميعًا، بما في ذلك حفيدي الذي أتمَّ عامًا، كان طفلاً ذا بشرةٍ بيضاءَ وسمينًا، يمكنه أن يأكل ويبتسم، ويُزرَّ عينيه، ويلكمَ بكفِّهِ الصغير ويلوِّحَ للناس باي باي. وقد طُبِّقت سياسةُ الطفل الواحد الآن، حيثُ يحيطُ طفلاً واحدًا ثمانيةُ أشخاصٍ يغدقون عليه هداياهم

Twitter: @ketab_n

وطاقاتهم. كان الناسُ بجانبِ البئر مهتمين بالطفل، يعطونه الطعام، ويداعبونه، وينتقلُ من يد هذا الشخص إلى يدِ شخصٍ آخر.

دسَّ أحدهم بالقوة حلوى الزفاف في فم حفيدي، لكنه بصقها على الفور.

"ماذا، ألا يتناول الحلوى؟".

"إنه يريدُ شيئًا ذا مذاقٍ ألذ!".

"جرِّب هذا، أعطه الشوكولاته".

أخذ أحدهم قطعةَ شيكولاته، وأزالَ الورقةَ الذهبيةَ التي تغلفها، ودسَّها في يدِ الطفل.

وبالطبع، فقد دسَّها الطفلُ في فمِه، وشرع يأكلها حتى سالَ لعابُه.

انفجر الناسُ ضاحكين: "آي، إنَّ هذا الطفل ذكيٌّ حقًا، فهو يفهم كيف يأكل!"

فجأة انفجرتُ غاضبًا، هذا يكفي، هل سيكبر ليكونَ ذوأقةً كذلك!، لم أتمكن طوال حياتي من السيطرةِ على تشو زي تشي، فهل سأفعل ذلك معك أيها الشيء الصغير!، مددت يدي وانتزعت الشيوكولاتة، ودسست قطعةَ حلوى بالقوةِ في فمِه الصغير.

حينها انفجرُ الطفلُ باكيًا.....

ذُهِلَ الحاضرون، وظنُّوا أن خطبًا ما في رأسي أنا ذلك الشخص العجوز.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المترجمة

يارا المصري

مترجمة مصرية درست اللغة الصينية في كلية الألسن ـ جامعة عين شمس في القاهرة وفي Shandong Normal University في مدينة جينان بالصين.

عضو اتحاد كتاب مصر.

نشرت قصصًا ونصوصًا شعرية مترجمة ودراسات أدبية وثقافية عن الأدب الصيني في مجلات وصحف منها "مجلة العربي، جريدة الأهرام، مجلة دبي الثقافية، أخبار الأدب ـ جريدة القاهرة ـ مجلة إبداع ـ مجلة رؤى).

تجيد اللغات العربية والصينية والإنجليزية.

صدر لها:

ـ العظام الراكضة ـ مجموعة قصصية، للكاتبة الصينية: آشه. عن دار الحكمة للثقافة والإعلام والترجمة بالصين 2014 .

ـ الفرار في عام 1934 ـ رواية قصيرة وقصص ـ للكاتب الصيني سوتونغ. عن دار الصدى، منشورات مجلة دبي الثقافية 2015 .

يصدر لها قريبًا:

ـ الرياح التي تهب إلى الشمال ـ للكاتبة الصينية بينغ يوان، عن دار الحكمة للثقافة والإعلام والترجمة بالصين.

yaraibrahim23@gmail.com

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حاشية:

هذا النص رواية، تفاصيلها من نسج الخيال، وقد اضطررتُ إلى الاستعانة بمناظر مدينة سوجو في كتابتها، وهذا أحد الأساليب الأدبية، أرجوا من القراء ألاّ يقارنوا ما جاء في النص بالواقع.. وتحياتي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

صدر من هذه السلسلة

1 ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

2 ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسي «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتير.

3 ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصري «خيري شلبي» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

4 ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصري «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

5 ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

6 ـ «عاشوا في حياتي».. للكاتب المصري «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

7 ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصري «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

8 ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

Twitter: @ketab_n

9 ـ «العاشقات».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

10 ـ «نوّة الكرم».. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

11- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالي «إيتالو كالڤينو».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

12- «القلعة البيضاء».. للكاتب التركي «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

13 - «أين تذهب طيور المحيط».. للكاتب المصري «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

14 ـ «قرية ظالمة».. للكاتب المصري «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

15 ـ «الرجل البطيء».. للكاتب الجنوب إفريقي «ج . م . كوتسي».. رواية .. جائزة نوبل.

16 ـ «طحالب».. للكاتبة الجنوب إفريقية «ماري واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

17 ـ «شوشا».. للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

18 - «شارع ميجل».. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

19 ـ «الحياة الجديدة».. للكاتب التركي «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

20 ـ «عشر مسرحيات مختارة».. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر»..

Twitter: @ketab_n

مسرح.. جائزة نوبل.

21 ـ «الآخر مثلي».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

22 ـ «المستبعدون».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية.. جائزة نوبل.

23 ـ «الأنثى كنوع».. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

24 ـ «ثلاثة أيام عند أمي».. للكاتب الفرنسي «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

25 ـ «إسطنبول.. الذكريات والمدينة».. للكاتب التركي «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

26 ـ «الطوف الحجري».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

27 ـ «نار وريبة».. للكاتبة الألمانية «بريجيتّه كروناور».. مختارات..جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

28 ـ «الذكريات الصغيرة».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

29 ـ «إليزابيث كُسّتلّو».. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي» .. رواية.. جائزة نوبل.

30 ـ «السيدة ميلاني والسيدة مارتا والسيدة جيرترود».. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

31 ـ «حين تقطعت الأوصال».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا»..

Twitter: @ketab_n

قصص.. جائزة بياروتيا.

32 – «مارتش».. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس».. رواية.. جائزة البوليتزر.

33 – «اغتنم الفرصة».. للكاتب الكندي «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

34 – «البصيرة».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

35 – «بريك لين».. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا علي».. رواية.. جائزة البوكر.

36 – «بريد بغداد».. للكاتب التشيلي «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

37 – «عن الجمال».. للكاتبة البريطانية «زادي سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

38 – «العار».. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي».. رواية.. جائزة نوبل.

39 – «قبلات سينمائية».. للكاتب الفرنسي «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

40 ـ «هكذا كانت الوحدة».. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

41 ـ «الشلالات».. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

42 ـ «العشب يغني».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

Twitter: @ketab_n

43 ـ «العالم».. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

44 ـ «ميراث الخسارة».. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

45 ـ «الطفل الخامس».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

46 ـ «بن يجوب العالم».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

47 ـ «ثورة الأرض».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

48 ـ «ملك أفغانستان لم يزوجنا».. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

49 ـ «الكهف».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

50 ـ «يوميات عام سيئ».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسي».. رواية.. جائزة نوبل.

51 ـ «كازانوفا».. للكاتب الإنجليزي «أندرو ميللر».. رواية.

52 ـ «انقطاعات الموت».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

53 ـ «العم الصغير».. للكاتب الألماني «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب المنفى.

54 ـ «اللعب مع النمر».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

Twitter: @ketab_n

55 ـ «في أرضٍ على الحدود».. للكاتب الألماني «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

56 ـ «الإرهابية الطيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

57 ـ «المسرحيات الكبرى» جـ1.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

58 ـ «المسرحيات الكبرى» جـ 2.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

59 ـ «نصف شمس صفراء».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزي آديتشي .. رواية..جائزة الأورنج.

60 ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

61 ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

62 ـ «الحوت».. للكاتب الفرنسي «جان ماري جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

63 ـ «رقة الذئاب».. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بيني».. رواية.. جائزة كوستا.

64 ـ «رحلة العم مآ».. للكاتب الجابوني «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

65 ـ «مسيرة الفيل».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

66 ـ «كرسي النسر».. للكاتب المكسيكي «كارلوس فوينتيس».. رواية..

Twitter: @ketab_n

جائزة سرفانتيس.

67 ـ «داي».. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندي».. رواية.. جائزة كوستا.

68 ـ «الحب المدمر».. للكاتب الأمريكى الكندي «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

69 ـ «أين نذهب يابابا»؟.. للكاتب الفرنسي «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

70 ـ «نداء دينيتى».. للكاتب الجابوني «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

71 ـ «صخب الميراث».. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

72 ـ «المؤتمر الأخير».. للكاتب الفرنسي «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

73 ـ «كتاب الرسم والخط».. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

74 ـ «كلٌّ رجل».. للكاتب الأمريكي «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

75 ـ «نُريد أن نتحدث عن كيڤين».. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورنج.

76 ـ «ألم فذ».. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

77 ـ «أناقة القنفذ».. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

78 ـ «حزن مدرسي».. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة

Twitter: @ketab_n

روندو.

79 ـ «غدًا».. للكاتب الألماني «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

80 ـ «الكلمة المكسورة».. للكاتب الإنجليزي «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

81 ـ «أن نُصبح أغرابًا».. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتي تراسك.

82 ـ «المرأة المسكونة».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دي لاس أمير كاس.

83 ـ «بيتر كامينتسند».. للكاتب الألماني «هِرْمَنْ هيسّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

84 ـ «بيت السيد بيسواس».. للكاتب من ترينداد «ڤ. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

85 ـ «مدريد الأصيلة».. للكاتب الإسباني «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

86 ـ «لاڤينيا».. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كي لي جوين».. رواية.. جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

87 ـ «أشجار متحجرة».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

88 ـ «سنوات الهروب».. للكاتب الكولومبي «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إي خانيس.

89 ـ «الباحث عن الذهب».. للكاتب الفرنسي «جان ماري جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

Twitter: @ketab_n

90 ـ «جائـزة أو. هنـرى».. مجـموعة من المـؤلفـين.. قصص قـصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنري لـــ عام 2007.

91 ـ «الحيـوان المُحـتضر».. لـلكاتب الأمـريكي «فيـليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

92 ـ «أنشودة ألاباما».. للكاتب الـفرنسي «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

93 ـ «إنجيـل الابن».. للكاتب الأمريكي «نورمـان ميللر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

94 ـ «الوصـمة البـشرية».. لـلكاتب الأمـريكي «فيـليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

95 ـ «ليتـني لم أقابل نفسى اليوم».. لـلروائية الألمانيـة «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

96 ـ «حكـاية أوزوالد جـ1».. لـلكاتب الأمـريكي «نـورمان ميـلر».. لغز أمريكي.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

97 ـ «حكاية أوزوالـد جـ2».. للكـاتب الأمريكي «نـورمان ميـلر».. لغز أمريكي.. الكتاب الثاني. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

98 ـ «وبـنى لها معبدًا».. لـلكاتب الألماني «سيجـفريد أوبرماير.. رواية.. جائزة شيلزهايم.

99 ـ «جـنون المتاهـة».. للكاتب الإنجـليزي «آدم فولـذر».. رواية..جائزة صنداي تايمز لكاتب شاب.

100 ـ «المـلك ينحني لـيقتل».. للـكاتبـة الألمانية «هـيرتا مولـلر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

101 ـ «العبـد».. للكاتب الـبولندي «إسـحق باشيفـيس سنجر»..رواية..

Twitter: @ketab_n

جائزة نوبل.

102 ـ «الفراشة والدبابة».. للكاتب الأمريكي «إرنست همنجواي».. قصص.. جائزة نوبل.

103 ـ «التجمع».. للكاتبة الأيرلندية «آن إنرايت».. رواية.. جائزة البوكر.

104 ـ «موندو».. للكاتب الفرنسي «ج.م.ج لوكليزيو» قصص.. جائزة نوبل .

105 ـ «الكون فى راحة اليد».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

106 ـ «جزيرة صغيرة».. للكاتبة الإنجليزية «أندريا ليفى».. رواية.. جائزة الأورنج .

107 ـ «حياتي».. للكاتبة الأمريكية «إيزادورا دونكان».. سيرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى .

108 ـ «تيو».. للكاتبة النيوزيلندية «باتريشيا جريس».. رواية.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية.. وجائزة مونتانا للرواية.

109 ـ «الجولة وحوادث مؤثرة أخرى».. للكاتب الفرنسي «ج. م. ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

110 ـ«ذهول ورعدة».. للكاتبة الفرنسية «إميلي نوتومب».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

111 ـ «أوليف كيتريدج».. للكاتبة الأمريكية «إليزابيث ستراويت».. رواية.. جائزة البوليتزر.

112 ـ «زهرة الكركديه الأرجوانية».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزي آديتشي».. رواية.. جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول.

Twitter: @ketab_n

113 ـ «ثمـةُ ما أقولُ لـكُم».. للكـاتب البريـطاني من أصول بـاكستـانية «حنيف قريشي».. رواية.. جائزة بن بنتر للأدب.

114 ـ «قـلبٌ ناصعُ الـبيـاض».. للـكاتب الإسـباني «خـابيـر مارياس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب (تشيلى).

115 ـ «كتـاب الزنوج».. للـكاتب الكندي «لـورانس هيل».. رواية.. جائزة الكومنولث للكتاب.

116 ـ «ملك كاهل».. للكاتب الفـرنسي «تيرنو مونينمبو».. رواية.. جائزة رينودو.

117 ـ «البينيلوبية».. للـكاتبة الكندية «مارجريت أتوود».. رواية.. وسام الفنون والآداب الفرنسي 1994.

118 ـ «قوس».. للكاتب الأسترالي «باتريك وايت».. رواية.. جائزة نوبل.

119 ـ «هناك حيث النمور في أوطانها» جـ1.. للكاتب الفرنسي «جان ـــ ماري بلاس دو روبليس».. رواية.. جائزة ميديسيس.

120 ـ «هناك حـيث النمور في أوطانها» جـ2.. لـلكاتب الفرنسي «جان ـــ ماري بلاس دو روبليس».. رواية .. جائزة ميديسيس.

121 ـ «الناقوس الـزجاجى».. للكاتبة الأمريـكية «سيلڤيا بلاث».. رواية.. جائزة البوليتزر.

122 ـ «لاحواء ولا آدم» .. للكاتـبة الفرنسيـة «إميلي نوتومب».. رواية.. جائزة دى فلور.

123 ـ «ذكريـات تراني».. للـكاتب الـسويدي «تـوماس ترانـسترومر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

124 ـ «الـتصحـيحات».. للـكاتب الأمريـكي «چوناثـان فرانزن» رواية.. جائزة الكتاب الوطنية الأمريكية.

الذواقة
Twitter: @ketab_n

125 ـ «أعداء» (قصة حب).. للكاتب البولندي «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية جائزة نوبل.

126 ـ «زجاج مكسور».. للكاتب من الكونغو «آلان مابانكو».. رواية.. الجائزة الدولية الفرنكفونية.

127 ـ «الإحساس بالنهاية».. للكاتب الإنجليزي «چوليان بارنز».. جائزة البوكر الدولية.

128 ـ «ربَّ جملة بعشرة آلاف جملة».. للكاتب الصيني «ليو تجن يون».. رواية.. جائزة ماودون.

129 ـ «حبُّ الغربان».. للكاتب الألماني «فافر تسينيك».. رواية.. جائزة إنچبورچ باخمان.

130 ـ الصبي سارق الفجل.. للكاتب الصيني «مو يان».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

131ـ الصائد صفر.. للكاتبة الفرنسية «باسكال روز».. رواية.. جائزة الجونكور.

132 ـ رحَّالة القرن.. للكاتب الأرجنتيني «أندريس نيومان».. رواية.. جائزة الفاجوارا.

133 ـ مذكرات شيهم.. للكاتب من الكونغو «آلان ما بانكو».. رواية.. جائزة رينودو.

134 ـ الطريق إلى إيدا.. للكاتب الأرجنتيني «ريكاردو بيجليا».. رواية.. جائزة مانويل روخاس.

135 ـ رجلٌ لا يكفُّ عن المرح وقصص أخرى.. للكاتب الصيني «مو يان»..قصص.. جائزة نوبل للآداب.

136 ـ جيران العالم.. للشاعر اليوناني «يانيس ريتسوس».. شعر.. جائزة نيو ستاد الدولية للأدب .

Twitter: @ketab_n

137 ـ العـاري والميت.. للكاتب الأمريكي «نورمان ميللر».. رواية.. جائزة الكتاب الوطني.

138 ـ المسخ يعشق متاهته.. للشاعر الأمريكي «تشارلز سيميك».. يوميات.. جائزة زبيجنيو هيربرت العالمية للشعر.

139 ـ يزول.. للكاتبة اليونانية «نيكي مارانجو».. رواية.. جائزة كفافيس.

140 ـ الأرجنتين (كان ياما كان).. للكاتب الأرجنتيني «أندريس نيومان» .. جائزة إيرالدي.

141 ـ الحرب الأخيرة.. للكاتبة الأمريكية «آن ميندز».. رواية.. جائزة أفضل مائة كتاب.

142 ـ أبيض ليلي.. للكاتب الأرجنتيني "ريكاردو بيجليا".. رواية.. جائزة رومولوجا بيجو.

143 ـ تقرير برووديك.. للكاتب الفرنسي "فيليب كلوديل".. رواية.. جائزة الجونكور.

144 ـ يوميات آدم وحواء.. للكاتب الأمريكي مارتن توين.. رواية جائزة الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب.

145 ـ الوحش المحبوس وقصص أخري.. للكاتب الصيني مويان .. قصص.. جائزة نوبل للآداب.

146 ـ تنويعات الإنزعاج .. للكاتبة الأمريكية ليديا دايفز.. قصص الجائزة الوطنية للكتاب.

147ـ المستلبون.. للكاتب التركي "دورالي يلماز".. رواية.. جائزة أفضل روائي.

148 – أغنية للنرويج.. للشاعر النرويجي "بيور نستيرن بيورنسون".. قصائد وأغانٍ.. جائزة نوبل للآداب.

Twitter: @ketab_n

149 – حانة العادات.. للكاتب الفرنسي "فرانز بارتل" متوالية قصصية.. جائزة الجونكور.

150 – البارون سارق الأشجار.. (الجزء الثاني من ثلاثية أسلافنا).. للكاتب الإيطالي.. إيتالوا كالفينو.. رواية.. جائزة فياردیجيو للأدب.

151 ـ إيرويكت.. للكاتب اليوناني "كوزماس بوليتيس".. رواية.. جائزة الدولة للآداب.

152 – ملحمة الذئاب.. للكاتبة الألمانية "كيتي ريشايش".. رواية.. الوسام العالي من الأكاديمية الألمانية لأدب الشباب والأطفال 1995.

153 – "فارس بلا وجود" (الجزء الثالث من ثلاثية أسلافنا) للكاتب الإيطالي "إيتالو كالفينو".. رواية.. جائزة فياريجيو للأدب.

Twitter: @ketab_n

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ ـ معارك الصحراء.. خوسيه إميليو باتشيكو..
جائزة ألفونسو ريبس 2011.

٢ ـ أنشودة الجلاد.. الجزء الأول.. نورمان ميللر..
جائزة باريس ريفيو (هادادا) 2002 .

٣ ـ أنشودة الجلاد.. الجزء الثانى.. نورمان ميللر..
جائزة باريس ريفيو (هادادا) 2002 .

Twitter: @ketab_n

سلسلة
الجوائز
154

الرواية

تُعدُّ رواية "الذوَّاقة" أهم عمل للكاتب الصيني "لو وين فو" وقد نُشرت للمرة الأولى عام 1983 في العدد الأول من مجلة "الحصاد". وتدور أحداث الرواية في مدينة سوجو جنوب الصين، وهي مدينة مشهورة بجمال الطبيعة وأماكنها الترفيهية، ومعروفة كذلك بمطبخها الشعبي الغني. وتحكي الرواية عن العلاقة بين أحد الأثرياء الذي يحبون تناول الطعام ويعمل كذوَّاقة وهو تشو زي تشي، وبين أحد المشاركين في الثورة الذي يعمل جاهدًا لتنفيذ أهدافها والبعد عن البذخ والإسراف وهو قاو شياو تينغ. وعبر اثني عشر فصلاً، اقتطع الكاتب "لو وين فو" زمنًا تاريخيًا يمتد لحوالي أربعين عامًا، بدايةً من الحرب الأهلية الصينية، مرورًا بالمجاعة الكبرى، ثم اندلاع الثورة الثقافية وما بعدها. حيث عكست الرواية أحوال المجتمع الصيني في ظل تلك الأحداث التاريخية، وناقشتها بشكل عميق من خلال طرح موضوع الطعام وثورة المطاعم ودمجها مع تلك الأحداث، بحيث يمكننا تتبع الأحوال الاجتماعية بل الظروف النفسية كذلك للشعب الصيني خلال تلك الظروف الصعبة وقدرة هذا الشعب على التعامل معها، حتى خروجه من عنق الزجاجة بانتهاء الثورة الثقافية وبداية عصر الإصلاح والانفتاح.
ويمكننا اعتبار هذه الرواية روايةً اجتماعية وسيرةً ذاتية للكاتب كذلك. فقد قال "لو وين فو": "قاو شياو تينغ هو أنا". لأنَّ سخطه وكرهه للمجتمع القديم كان السبب الذي دفعه إلى الاشتراك في الثورة والتغيير، ولأنَّه كان معجبًا بالأفكار الثورية المثالية، وقد وقف من قبل لطلب العفو والسماح أثناء الثورة الثقافية كما ستحكي الرواية، ولأنه نُفي لمدة تسع سنوات إلى الريف. وتكشف الرواية عبر الشخصيات عن نوع من التأمل الدقيق في الثورة والأفكار الثورية، وعن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، وعن بعض الأفكار والسياسات غير الناضجة وغير المكتملة التي لها علاقة ببناءِ دولةٍ ومصيرِ شعب.

الكاتب: لو وين فو، كاتب صيني.
الجائزة: وسام فارس في الفنون والآداب الفرنسي عام 1989.

ISBN# 9789779106359
6 221149 041127

تصميم الغلاف: د. هند سمير